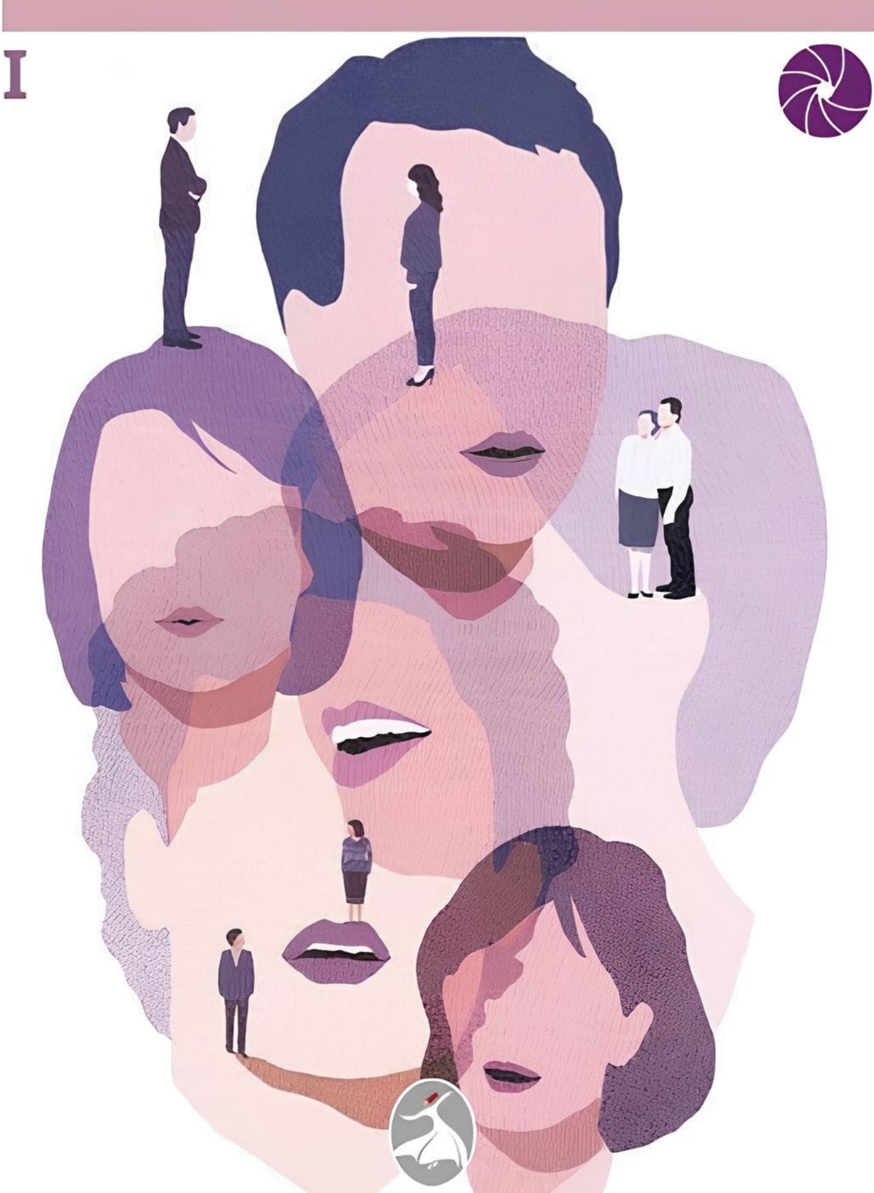
خسوف

ياسين الغماري

خديعة الخديعة

I



ياسين الغماري

خديعة الخديعة





ياسين الغماري

ياسين الغماري-روائي تونسي من مواليد سوسة 22 فبراير، مُتحصّل على بكالوريا علوم تجريبيّة، وعلى الاجازة الأساسية بالماليّة بالفرنسيّة 2016-2019، وعلى ماجستير في التحليل المالي بالانجليزيّة سنة 2021، يتركزُ اهتمامه على الاقتصاد والتنمية المستدامة وهو موضوع بحثه في رسالة الماجستير وسيرته الروائيّة زمن التعب المزمن صدر له: زمن التعب المزمن، سيرة روائيّة، الساعاتي، "صانع الزمن"، رواية.



خديعة الخديعة

الكتاب: خديعة الخديعة (خسوف)
المؤلف: ياسين الغُماري
النّاشر: دار الدّراويش للنّشر والتّرجمة- بلوفديف- بلغاريا
Фирма Бадер



العدد: ١٣٦٠
الطبعة الأولى أبريل ٢٠٢٤
١٢٩ص؛ ٢١× ١٤ سم.

الكتب والدّراسات التي تصدرها الدّار إنما تعبّر بالضرورة عن آراء ووجهات نظر واجتهادات أصحابها، ولا تمت لرأي الدّار بأي صلة.

تم الإيداع في المكتبة الوطنية صوفيا بلغاريا : ٢٠٢٤



(ISBN) (ردمك) الورقي
لوحة وتصميم الغلاف والإشراف الفنّي: بدر السويطي.
الصفّ الضوئي والإخراج الداخلي: محمود عنتر
فرز الألوان والتنفيذ الطباعي: دار الدراويش للنشر و الترجمة
المدير العام: بدر السّويطي

للتواصل:
الدّراويش للنّشر والتّرجمة
daraldarawesh@gmail.com
هاتف: 00491627040179، ص.ب: 87600
شارع تورغوفسكا رقم ٧- ستامبوليسكي- بلوفديف- جمهورية بلغاريا.

خديعة الخديعة

ياسين الغُماري



©
الدّراويش للنشر والتّرجمة
AL-DARAWESH FOR PUBLISHING & TRANSLATING
WWW.DARAWESH.COM
بلوفديف -جمهورية بلغاريا
Plovdiv-Bulgaria
2024

هذه الرواية هي محض خيال، أي تشـابه في الواقع، فهو محض صدفة ولكن الأحداث التي تدور بالمدرسـة حقيقية، عشـتها أنا شخصيًّا.

أهـدي الرواية إلى زملاء دراسـتي الّذين أصبحوا الآن نسـاءً ورجالا

أغلب النّاس عند السُلطة يصيرون أشرارّا.

أفلاطون

أكبر شرّ عدا الظلم هو أن لا يدفع الظالم ثمن ظلم

أفلاطون

قلوبهم معنا وقنابلهم علينا

أحلام مستغانمي

كانوا يتوارثون الخوف أبًا عن جد، كان الخوف يبدأ بولادتهم ولا ينتهـي إلّا مع موتهم، ولذلك كانوا يُطلقون على هذا الخوف إسم الحياة

نيكوس كازانتزاكيس

(1)

يوم الخميس لم تشهد «رنين» تعبًا من قبل، بكمّ ما تحسّه الآن عندما تعذّرعليها الحُصول على ما تصبو إليه. غطّست قطع البطاطس المشروخة في المقلاة فوق الموقد. وقد كانت حانية الظهر وساهية العينين. بدت المقلاة لها أضيق ممّا كانت تعتقد. حرّكت الملعقة الخشبيّة بتؤدة. في زاوية الحوض اليُسرى تكدّست-مُنذُ مساء أمسٍ-كومة من الأطباق والملاعق، من سلّة يطفح منها الأكل الفاسد. تشعر بغثيان مُتّسخ. ستسقط على الأرض مثل زخّات المطر. وهذا خُلاصة العمل المُمتد-بالبيت-مُنذُ سنوات. ويتعيّن عليها-في أغلب الأوقات-أن تفعل ذلك. وبينما كانت تُزيل قطع البطاطس المُفلطحة من المقلاة، ترامى إلى مسامعها نداء رجل يتلمّس المُساعدة. يطرق الباب بشدّة. ولدى بُلوغها غُرفة الضيوف رفعت القليل من الستائر. جالت ببصرها على زوايا الباب. كانت الشمس عاكسة خيوطها. رأت رجُلًا في مُقتبل الثلاثينات من عُمره. يتّشح بالوقار والنُبل. يتسربل بطقم أزرق ومعطف أسود طويل. حسبت للوهلة الأولى أنّه

ضائـع. كدأب الغُربـاء. تحرّكت لتفتح له البـاب. لكنّها مكثت هُنيهاتٍ شـاردة في أمرها. لا يجب لنساء القُرى أن يفتحن الباب للغُربـاء. لا تعـرف ماذا تفعـل. اتّخذت قرارًا بشـأن هذا. عندما فتحـت نصف الباب أدركت بُرودة الجو. الفُتحة بالكاد واسـعة بما يكفي لتمرير شخص بالغ.

نظرت خلسة ثمّ قالت برفقٍ:

«بماذا أخدُمك؟»

لم تُبعـد نظرهـا عنه. تمنّت أن يرمُقها بنظـراتٍ مُماثلة. وحدها شفتاه تُسـقطان العاقل في فوهة الجُنون. حدّقت فيه كما لو أنّها لم ترَ رجلاً-بقدرٍ أكبر من الجمال-من قبل. كان قلبها يشـكُّ في أنّه لن يكون جُزءًا منها.

نظر إليها الغريب باقتضاب وتفاخر:

أردف بسُخرية بريئة من الإستهزاء. «زارتنا البركة»

أصبحت بلون الفجل الأحمر. ارتبكت كأنّ مفاصل جسدها قـد تصلّبت. وكان بمُسـتطاعها أن تقول: «تقبّل أسـفي. نسـاء القريـة لا يتحدّثـن إلى الغُربـاء» طفقت تُلوّح بيدهـا من هُنا إلى

هُنـاك. ضحـكَ الرجل بطاقـة أكبر من طرق البـاب: «هل أبدو غريبًا مُخيفًا بالنّسـبة لكِ؟» تساءل بلهجةٍ مُفعمةٍ بالكياسة. التفّ حول نفسـه وكان سـاطع اللمعان. تبدّت ابتسـامة حماسـيّة على شـفتيه. ثمّ استرسـل مُعربًـا أنّ سـيّارته قد تعطّلـت. طرق على أبواب البُيوت السّـابقة ولم يكن ثمّة من يتكرّم بفتحِ الباب. ثمّة من أبى أن يمدّ له يد العون. أوضح لها-بينما كان يزدرد ريقه-أنّ التعـب قد نال منه. كما أنّه ظَمْآن. سـدّدت بصرها إلى الأسـفل، واجمةٌ. لم تجد في جعبتها كلمات. كأنّ القزم الشرّير أكل لسانها.

«أعتذر على الإزعاج. سأطرق بابًا آخر»

تحوّل بصره عنها واسـتدار إلى الجانب الآخر مُنصاعًا. يمشي أبعد فأبعد بحركاتٍ موزونة. لبثت مُتخشّـبة في مكانها. قابضة بمقبض الباب على ذلك الشكل المُخيِّب. ولم يعد في مجال البصر. والدتها تسأَلُ من الطّارق؟ تلمّست خُطواتها-مُتهادية-نحوها. وضعت يديها على خصرها وأردفت في ضيق: «ما الأمر؟» ردّدت والدتهـا بصرها إليهـا قلقة الظـنّ وكانت فوق ماكينـة الخياطة. سألتها ثانية-بكلمات مُتهدّجة ورخوة-عن هُويّة الطّارق.

«لا شيء ذي بالٍ»

«ألم أُحذّركِ من فتح الباب للغرباء؟»

تُحيدُ بنظرها عنها. «ومن آخر لديه دراية غيركِ؟»

«سأفقدُ صوابي منكِ»

تحسّست رائحة شيء يحترق. كانت قطع البطاطس الّتي تتقلّى على النّار. أطفئت-على جُناح السُرعة-الموقد. رمت المقلاة بأكملها في قاع القُمامة. كانت تُغمغم-بأُمور شتّى-في حيرة من أمرها، وقد بدا عليها العياء. عقب هُنيهاتٍ من الزمن قفل والدها سي «محمود» راجعًا إلى البيت رفقة ضيف. ليسَ من شأنه-بقدرٍ مُماثل من الواقعيّة-أن يُدخل الغُرباء. كان نفس الرجل الّذي مرّ للتوِّ. مُطأطئ الرأس كتوم. حيّاها بصوتٍ منخفض. وتنفّس بعُمق.

«رحّبي بضيفنا «وزير»»

سيمكثُ هُنا-بعض السّاعات-إلى أن تكون سيّارته جاهزة. وقبل انصرافه إلى الحمّام طرح سي «محمود» نفس السُؤال في دهشة: هذا المودال من الصّعب أن يتعطّل؟ وفي المطبخ دسّ «وزير» قطعة فوشار في فمه على نحوٍ مُباغت. ناولته كعكًا منزليًّا

مكسوًّا بطبقة كثيفة من الفراولة. «خُذ لقد عُدَّ من يدي»، مدّت يدها بالصّحن. «هـذا كرمٌ منكِ» قال بصوت يقصد به الهمس. مُقرِّبًـا وجهه منها باحـتراسٍ وتحبّب. كلّ مـا في وقفته ثابت. لا يَنِي عن لمسِ عقدة عُنقه وحزام بنطاله.

أحنى رأسه ليرشُفَ الليموناضة. «أفعلًا لم أُزعجكِ؟»

قالت مُدقّقة النّظر. «كلّا. دون حرج على الإطلاق»

طفقـا يتحدّثـان حول مواضيـع أُخرى غير المُنـاخ وتحوّلاته. عرفت أنّه يعمل بشركـة الكهرباء والغاز ويملك فُندقًا صغيرًا. ينكشـف الجانـب الغامض من شـخصيّته في حِضـم مُراوغاته. حملق من خلال الشبّاك–بالأشـجار الّتـي كانت تهتزّ بالهواء–في الحديقة. كل ما كان يشغل بالها أنّ الأرضيّة أصبحت طافحة في الفُتات. ناهيك عن أعقاب قطع السباغيتي تحت المنضدة.

باغتها بالسؤال. «ما سنّكِ؟»

«وما شأنكَ؟»

«الأطفال وحدهم لا يفتحون الباب للغُرباء»

«أبلغُ من العمر واحدًا وعشرين عامًا»

«كبيرة بما يكفي للتحدّث مع الغُرباء»

أفهمته–بإسراف–أنّ الريف يختلف شكلًا ومضمونًا عن المدينة. هزّت رأسها بقُوّة. تشرح بالقدر المُمكن من التلميحات. إذا اتّجهت سيّارته بتتابعٍ معكوس–وبشكلٍ حلزوني–عن مسارها. وانجرفت إلى غابةٍ كثيفة الأشجار. فاعترضت طريقه إمرأة بالغة الجمال. سوف تستدرجه بجمالها إلى وكرها. بطبيعة الحال، يُطيعُ الرّجال المرأة السّاحرة. وبعد هُنيهاتٍ يُلاقي حتفه.

ضحكَ بمُنتهى البَلَهِ. بالكاد استطاع تحمّل بقيّة الكعكة دون تأتأة. «ومن تكون هذه المرأة»

كخفافيش تدافعت كلماتها من تلقائها. أطلعته على أمرٍ ما أنّ هذه المرأة معنونة بـ«عيشة قنديشة» وهي ساحرة عجوز داهية تصرف وقتها في حَبْكِ المكائد لتفريق الأزواج. قدميها مثل حوافر البِغَال. خلّصت بالقول أنّ الطريقة المُثلى للخلاص منها هو كبحُ جماح أهواءه ومُباغتتها باللهب. لا شيء أكثر. وقالت بنبرة لا تخلو من الإثارة أنّ الرُضع مرصودون–في آخر الليل–إلى امتصاص أدمغتهم من «أم الصبيان». الأطفال مُدعاة–وقت الظهيرة–للخطف من «بو شكارة». وهو غنيّ عن

التعريف. كانـت اللائحة طويلة. الجميع هُنا مرصود بطريقة أو أُخرى. استخفّ «وزير» بما قالته. كل ما سمعه لا يعني له شيئًا. محض خُرافات. كما يحلو لك، أجابت. سيسـقطُ في المتاعب لقلّة حـذره. ومع ذلـك فقد أبلغته بما ينبغي نقلـه. وترجو له التوفيق فيما يسعى. كان هذا كلّ شيء.

(2)

في صَبيحة ذلك اليوم الصّاقع من تشرين الثاني، كل ما يُمكن سماعه في السوق «تريليا-مُرجان». تتشكّل ذرّات المطر على المظلّات. أنشأت «رنين» تسحق كثب من النّمال بنعليها أثناء حديثها مع جارتها «ريماس» عن السيّد «وزير». وإذ بها تشتاق إليه شوقًا مُؤلمًا. هذا رجلٌ لا يُمكن الاستهانة به. وما كان ينبغي أن تُفرّطَ به كذلك. في الريف لا يشعر المرء بالحُريّة. لا ينبغي أن تُفجّر ما بداخلها بالصورة الّتي عليها. كما يبدو الأمر مُخزيًا.

«هل حذّرته من أولئك الّذين لا نتحدّث عنهم؟»

«أعتقد أنّه من الصّنف الّذي لا يأخذ بالنّصيحة»

«لعّله في عداد الموتى الآن»

تنكسف «رنين». وتحمرّ كبطيخة مفلوقة. «يكفي عن قول هذا»

«لعلّه سلّال القلوب أيّتها البلهاء»

«كلّا، لا أعتقد»

وفي الإجمال، زعم السـيّد «وزير» أنّها خُرافة ضاربة في القدم. شخرت جارتها كالخنزير المُدلّل «أمزح» وقد كان مزاجها مُلائمًا للهـزل على الدوام. اشـترت كيسًـا كبـيرًا من الشـمندر. إضافة إلى كيس ثِمار كثَمـرات الحكايات الخُرافيّة. ونظرت–مشـدودة إلى الخلف–بـين عربات تتغيّر شـكلًا ولونًا. تأخذ بعين الإعتبار قُوّتها الشرائيّة.

«أي شيء تنوين فعله بعد تخرّجكِ من الجامعة؟»

«أسعى أن أكون زوجة رئيس دولة»

«لكنّكِ لستِ حلّاقة»

«الحلّاقة فعلتها ماذا عن فتاة الكُليّة؟»

«أنتِ مُتجبّرة ومُقتدرة»

«تأكّـدي ضمنًـا أنّ همّتي لن تخمد، أنتِ لا تعرفين شـيئًا عن ماهيّات النفّس»

لم تستكنف «ريماس» عن القيل والقال. كانت مُحتقنة ومُهتاجة بالسيطرة دُفعة واحدة وليس على أقساط. تُفكّر أيضًا أنّ السّلطة عُنصر مُعقّد–وسائدة بغير إنتظام–ستكتسبها من حيثُ الشّكل

والقُوّة. تريّثت هُنيهة–وعلى نحوٍ ما–استزادت كبالوعة لا تهدأ أنّها ستسوس البلاد الخاضعة في المكان والزمان المُخصّصين لها كما تقود جرّار والدها. سوف تكون–في العموم–على دراية تقريبيّة دون إغفال ما هو وارد أو صادر. وعندما تصبو إلى ما تسعى إليه بأكثر الوسائل بساطة، فإنّها لن تتحكّم قدر الإمكان بمشاعرها، أو حتّى بتقدّمها. الوحش النّائم بلجّة أعماقها يرى التشعّب الفوضوي وقتذاك. يعلو في مكان واحد مع استبداد أكبر ممّا في أماكن أخرى. يكتسح بوتائر مُختلفة كل شيء. وبتواصل تعاظمها بما ليس لديها، لن يُعرف إلى أين هو ماضٍ. لا يستطيع أحدًا اللحاق به في هذا البلد الّذي يجنح للتفكّك. موقفها بات واضحًا كحزب تنكّري يبتلع الدم. لا يُمكنها أن تكون إلّا في أكوان الهلاك، والأشدّ ظلمة. إنّه الوقت الّذي تشعُّ فيه. «وحدها الريح تشي بوجهتها وأنا عكس الريح». لن تكون ساذجة مثل «ماري أنطوانيت» التي قالت لشعبها: «إذا لم يجدوا الخبز، فليأكلوا البسكويت» ، لكنّها ستجعلهم يأكلون الأوساخ دون أن تقول لهم كلمة واحدة. إنّها ظلال السلطة. لا ترجو أحدا، بل تُلقي الأوامر وتُنفّذ بحذافيرها. استرسلت كاشفة

عن بواطنها. تُطلق شـهيقًا يُشـبه البُكاء. عازمة امتناعها عن مد يـد العون للنّاس الأكثر بسـاطة. إنّهم فضلة بين المزابل. تجعلهم خدمًا تحت قدميها. لا بل أسوأ من ذلك.

صاحت، بطبيعتها الفظّة، تُشكّل تصوّرًا للفوضى. «سأجعل ضربهم مُتنفّسًا لغضبي»

«لا أتمنّى لكِ التوفيق فيما تسعين إليه»

قالـت «رنـين» بينـما كانت يدهـا المُـتردّدة تنزلق بـين ثمرات الكيـوي. يُنـافي هذا التفكير مـا في غايات أمكر البـشر. أمرٌ غير مُمكـن. لا يوجـد لا عـلى سـطح الأرض ولا على سـطح القمر. يُحاكـي قوانين شـيطانيّة مُطلقـة. «أمزح سـأكون المعطى وليس الأخـذ» شـخرت «ريماس»-بـين فواصـل الصّمت-كالخنزير المُدلّل ثانية. جعلت كل ما تُضمّنه طي الكتمان. ثمّ افتعلت عراكًا مـع أحد الباعة. تقصّدت النُّطق بعبارات تحمل السـفه. احتلّت موضعًا غير ثابتٍ. مُجيلة أنظارها بين اتّجاهات الهُروب. لطمته-في سـاعة الأخذ والردّ-بكيس الشـمندر. ولّـت «رنين» راجعة إلى بيتها مشـدودة الأعصاب. تُفكّر في ما ينتظرها من مشاق، لا ينـوء بها حتّـى الرجال. وإذا أرادت، فضلًا عـن ذلك، الحُصول

على قسط من الراحـة، فإنّ موجة من موجـات الأعمال-الأكثر هشاشة-تشـدّها. بعد مضي شـهر بالتـمام والكمال، قُـرِعَ الباب وكان قرعـه مدعـاة للقلـق. تمايلـت في ركـود لازِب. «تعطّلت سيّارتي» قال السيّد «وزير» ولَدَّنَ عُقدة ربطة عنقه.

(3)

كانت السّماء شديدة الزرقة. وبصيص الشمس الغاربة يسقط-على نحوٍ عمودي-بالأضواء على اليابسة. تظهر ثمّ تختفي خلف فجوات ثخانة الغُيوم. لاح وجه «رنين» مكسورًا وفيه تجاعيد القلق مثل بُرتقالة مُسطّحة. تمكّن منها شُحوب الزّمن. عند الممشى الحجري يلعق ماء بحر المنشيّة زُرقة قدميها بفارق عُلوي. تلتقط ومضات لا تعرف إذا كانت موجودة. تزخر بتصدّعات لا تعرف عُمقها. بين همهمة وسُعال أدارت بصرها-ذات الشمال وذات اليمين-إلى طفلها وصديقه «طلال». كانا يعدّان قلعة من الرمال. في ليلة شتاء مائجة أنجبت «مُرتقب». أخبرتها البصّارة أنّ هذا الوليد سينتظر حدوث الأشياء دون أن تحدث. وستكون حياته سلسلة مُتواصلة من المحن. سيفقد من يُحبهم واحدًا تلو الآخر. يُمكن أن تصير الأسماء فواجع تقطع المسارات لهم على أكمل وجه. كان التفكير شديدًا متى جاء أحد البحّارة-على حين غرّة-من الخلف.

هرش رأسه قائلًا:

«ما الأمر؟»

نـأت عنـه مـع إطالـة التحديـق، وعديمـة الخـبرة في خلـق حـوارات. كان لديها تصاوير جليّة، تفيض بالحيرة إلى هذا البُعد الحسّي، لقد أصبحـت أكبر من ألّا تتحدّث مع الغُرباء، أو حتّى مـن إقامة صلة مع البحّارة، أقلّ تعقيـدًا من نواحٍ أُخرى، إذ ثمّة رغبـة دفينـة بالتقارب الأقصى، يُوقظ التأسّـف على ما فات، لهو أمرٌ يُناشد اكتشاف أروقة النّفس، تخلّت تقريبًا عن تلك القاعدة الشاملة. شيء ما يدفعها إلى إنشاء علاقة مع العالم.

«من أين أنتِ؟»

تُـصرّ على أسـنانها كاتمة سُـعالها مـكان أن تُطرده. «من مدينة مساكن»

لاح كمن دُهِشَ. «لكنتكِ تُوحي بأنّكِ أتيتِ من الريف»

«أنا أستقرّ في المدينة»

«أراقت لكِ المدينة؟»

«كلّا. ليس تمامًا»

«أحسبُ أنّ حياة الريف أسهل من حياة المدينة»

أجابت مُمْتَعِضة وساكنة. «في الريف يتقّبلكَ النّاس كما أنت»

«المثل الشعبي يقول: في النهار مساكن وفي الليل سكاكن»

لوت حاجبيها. ويمخَرُ الماء البارد قدميها إلى السطح الواطي مـرّة أخـرى. تـرك لطخة حمـراء. كانـت تُفكّـر في الرغبـة الّتي فقدتها-يومًـا بعـد يوم-منذ قُدومهـا إلى المدينـة. لم يُحبّها النّاس بتعلّـة طبيعتهـا العفويّة. دائمًا تشـعرُ بأنّها تحت السـيطرة. كانت تلك أعمق فكرة فكّرت فيها. لم تهنأ تمامًا بحياتها في المدينة، حيث يتخصّص النّاس في شـؤون بعضهم البعـض ويُضخّمون الغيبة والنّميمـة. «هل فكّرتَ في الانتقـال إلى الريف؟» قالت مُقترحة فكرة تودّ إيصالها لا طائل فيها. «لم يكن يخطر في ذهني. لا يهمّني أين أعيش. أنا بحّار» نظر إليها سـاهمًا. بدا تفكيره نيّرًا على نحوٍ لافـت للقلب. لا يحتاج مِقرابًا. بل مرئيًّا بالعين المُجرّدة. ويحمل قدرًا من الحكمة. حسـبت أنّه سـبِرَ لِحفها. غارت قدماها في لُجّة البحـر. تسـاءلت مـا هو وجه الشـبه بـين تلاطم البحـر وتحطّم دماغها. من هذا إلى ذاك ينبثق تصوّرًا من إيقاعات روحها. لعلّه من المعرفة المُسـبقة والدفينة. أو من جانب الريبة، عسـاه من أيّام باذخة الحُزن. لا شيء من كلّ هذا له أن يُدلي بدلوه عنها.

«سعدتُ بالحديث معكِ»

«لي الشرف»

«إذا كُنتِ بحاجة إلى الدردشة، يُمكنكِ القُدوم ساعة تشائين»

«يِعَيْشَكْ»

جذبت باب السيّارة وأطبقته. ليس مُغلقًا تمامًا. أعادت غلقه مُحدثة ضجّة بمعنى ما. تبحث عن أي يقين. طريق العودة المزعوم كان أكثر ازدحامًا. أخذت معبرًا آخر مُستبعد. في حُسبانها أنّها ستتخلّص فيه عن تلهّف السائقين. يكمن قالب المدينة الفعلي في تصعيد الهرج المُتّصل بها. أدارت المرآة ليكون طفلها وصديقه أمام ناظريها. يغرقان في الخلفيّة المُعتمة. وفي طريقها تسترجع ذكرى مَضَتْ. كم كانت وازنة. كأنّها تشهدُ المدينة في مرّتها الأولى، منها المحال والنّاس والمنازل الضخمة. من العادي أن يكون الأمر على هذا الحال. لا تتعدّى هذه الذكرى سبع سنوات. كل شيء حدث على عجل. وترك فيها انطباعًا قاتمًا. إلّا أنّ إحساسًا بالخوف ظلّ يُراودها. وليست مركز العالم ليتفجّر كل ما هو موجود.

«إلى المُلتقـى» صعّد «طلال»يده دلالة الوداع. يسـتقبل رُعب الليـل بجُبنه. تتجلّى آفة ليلـه على نحوٍ اسـتثنائيّ ومُغاير. فضلًا عـن مُضايقات أقربائه. لا يُحيطونه بـكلّ الرعاية. تَحَوَّل إلى بيت عمّه إثر هلاك والديه في حادث سـير. وعلى هذا الأسـاس انتأى عنهم بصرف مُعظم وقته في اللهو خارجًا.

البيـت الّذي تقطن فيه مكانه في نهاية المدينة. وتصخب الجدّة والدة السيّد «وزير» على قدرٍ من التسلّط كدأبها.

«لماذا تأخّرتِ عن العودة»

« الطفلان أرادا البقاء زمنًا أطول»

«زوجكِ ظلّ على إنتظاره لكِ»

وجمـت «رنـين» في المُكعّب المخروطـي، تاركة الجـدّة تُغمغم وتفـحُّ كتنّين الحكايـا. تحمل معاني الإِمْتِثـال. الصمت والتغافل مشروطان للعيش في هذا البيت. وبالسُـبل الأكثر سلاسة تُؤخذ إلى الخُضوع. غالبًا ما يكُون حلقها ثقيلًا-خشنًا وناشفًا-في هذا الوقت من المساء. ورُفّات التّعب تتمطّى إلى جفنيها. يمتدُّ اللون الداكـن بوضوح أكـبر إلى الأزقّـة. خُلِقت العواصـف الرعديّة

لتجتاح المدينة بُسلطانها. ترتسم بثقل عُنفها المُنتظم لقاطنيها. ويختلط مواء القطط الضالّة مع صفير الريح، ممّا ينجم عنه جمال حزين يشدُّ الضيق. كان الطفل «مُرتقب» مُضطجعًا إلى سريره. يتربّع على ملاءات من الأرانب الزرقاء الصغيرة. يترقّب أوان العشاء. يُقلِّبُ صفحات كتاب للأطفال. لا يفهم مُعظمه. لكنّ إستياء أشخاصه يرنّ في قلبه. له أن يشعر بضيق عُزلتهم. هَرَسَ عينيه المُتعبتين وفزَّ من فراشه على شكل مُعادله سجين ينزلق من أي فُتحة. أَتَى ناحية الشبّاك والمطر يقرع ضباب بلّورتها. خلعَ قليلًا من ستارها. قدّرَ أن تقع عيناه على سيّدة. ترتدي عباءة كُحليّة وتحور حول الصّنوبر. أحجمت عن دورانها وراحت في لوعة تنظره مُلتاعة. هزّت رأسها تدرُّ السّحاب الأسود، فاستدرّ خوفه إلى نار تتشظّى. لا يتحرّك قيْدَ شعرة. بإبهامها أشارت أسفل رقبتها بُرْهان انسحاقه وإنحداره. في حينه زغللة باغتته كادت أن تكون غزيرة. يندلق من غُرفته. يتبيّن ببصره ما هيّأته الجدّة من طبيخ. يبتلعه توبيخها بمُجرّد أن وطأت قدمه الضئيلة الفراغ. يعتقدُ النّاظر إليها أنّها ثعلب مُشتعلة، لكنّها تنشغل بذاتها عن من يُقلقها بخُطواته ، وعن من يتلصّص عليها.

يذعـن الطفـل إلى أوامرهـا. يُجرجر أحد الكـراسي. يقبع فيه غائـم العقل عـلى مألـوف العـادة. كان السـيّد «وزيـر» مأخوذ برواية «غادة السمّان»، «بيروت ٧٥»، تندّ منه اِبتسامة–من وقت لآخر–ويُبدي دهشة بلغت حدود الإعجاب الشّديد، بـ«نمر». يُكشّر عن أنيابه–مثـل الكلب–على جري العادة. يهرش عضوه التّناسليّ. يعبث بحزامه في غنج. يشعر بالألم في فذَالة عُنقه. يمتدّ الوجع إلى آخر نُقطة في الظهر، لهذا يُؤثرُ الاستلقاء على السرير في معظم الوقت. كان هذا سببًا آخر يُعيق تطورّه الشّخصي. يستبقُ نحو مائدة العشاء بخطوات شكِسة و«نمر»–الّذي يندر مثيله–ماثلًا في ذهنه. تهبّ «رنين» والجدّة لبسط الطّعام على أكمل وجه. في وقـت الضيق تقول مُمثّلة شـمطاء من خـلال الراديو أنّ المَأتى المَبْدَئِـيّ في تردّي إيفاء رئيس الحُكومة هو عدم قناعته الجنسـيّة. تلهث «رنين» سارعة إلى كبح المذياع وكانت ذاهلة من الوقاحة الّتي تناهت إلى مسـامعها. تهتـزّ رأس «وزير» المدودة إلى الأمام. يلـوك شرائح اللحمة المُنبسـطة. رقاقة من الشـحم تفرّ من فمه. يتلقّى رسـالة على هاتفـه. يبدأ–سرًّا–في قذائـف الثّلب المُلتهبة. فيستأذن منهم بالسهر خارج البيت.

«سأبقى حتّى وقت مُتأخّر من الليل»

وتُـولّي «رنين» راجعة إلى شريط مُسـاء لاتها عن لياليه الخفيّة. ترشـقه–مع الأخذ بعين الاعتبار–باتهامـات الخيانة والتهوّر. في خِضـم هـذا الموقـف، يُطالعها والـرّأس يترجّح. وجنتـاه لونهما ضارب إلى الحُمـرة. هاج وماج. يُلقي بالمنديل جانبًا. كان يقول ما لا يفعل. تجده في طابور ثمّ ينقلب إلى طابور ثانٍ وهذا بسـبب الاضطراب ثُنائي القُطب.

يُحوّل أنظاره عنها بحركة حلزونيّة. ينتفخ حلقه، وابلٌ من اللعنات:

«ما تقولينه يُجافي المنطق. لا أسـتطيع حتّى أن أشـعر بعضوي من العقاقير»

ترتعـد «رنـين» على ما هـو عليه بالفعـل. تنطّ مـن مقعدها. صلابـة أطرافهـا تُعيقهـا إلى حـدّ مـا، بعـد أن أرهقـت الجسـد واسـتنفدت قدراته في التنظيف. كان عليها تصويب ما قيل وأن تتلافى أي حريق.

يطول بها التهديد. «اجعل لُغتك الجنسيّة على الأخصّ بمعزل عن الطفل»

يحـدثُ هذا، أن يجد السـيّد «وزير» مأذونيّـة مُزيّنة لينبثق –في حُدود مُعيّنة– من شـأن غضبه المكبوت هذا. والّذي ينطوي على قرفـه. يلتقط –في نطاق بصره– سـائر الأطباق المُرقّطة وتتشـعّب مُتعرّجًا. يقلب الطاولة رأسًـا على عقب، يجعل أعلاها أسفلها. يطفـو دفق الغضب أكثر ممّا عند غـيره. وتعزف المدينة بالأيادي المُدنّسـة عـلى أوتار الصمت الكُبرى. أو عـلى العكس من ذلك. ضجيـج الصمت يتلاشـى مثل ألة مُوسـيقيّة ذاوية بـلا نوتات. إنّ مـا يجمـع بينهم واصر العُقـد. يُكابدون من عُقـدة المجهول. إنطلاقًـا منهـا، أفراد هـذه العائلة، عبثًا، قد جمعـوا ما بين فرادي العُقـد. يختلفون عن أيّ عائلة أُخرى. هذا يُمثّل ميراثًا مُتواصلًا للطفل. رنّ الهاتف في ساعة متأخّرة من الليل.

كان المُتّصل سيّدة. قالت:

«هل تعرف؟»

أجاب «مرتقب» وقد فرك عينيه. «أعرف ماذا؟»

«الجميع يعرف»

«يعرفون ماذا؟»

«أنّهم يعرفون؟»

«ماذا؟»

«يجب عليكَ أن تعرف أنّكَ تعرف»

«أعرف ماذا؟»

«أنّكَ تعرف»

«ماذا أعرف؟»

«إذا لم تعرف فمن سيعرف؟»

أغلق الهاتف جزعًا. تتلّوى شفتاه مثل الثعابين المُمزّقة. وصاح باكيًّا «أمّي ثمّة من يستغفلني في الهاتف»

يهجم على السيّد «وزير» انفلات وحشيّ بتشوّش نظام عقاقيره. يفقد سيادته على كوابحه الأخلاقيّة والاجتماعيّة. أشياء بغيضة يفعلها. يصطحبُ إلى فُندقه أي فتاة مُظلمة يجدها بلا مرفأ. تُشاطره ضياعه وقرفه. يعجز عن السيطرة على ذاتيّته. وجهه يشرق كفزّاعة تُرهب الطُيور. جوع شره ينكأ الشُروخ. إِنْحِرَافات تقفز من جُثمانها. يفعل بها ما لا يفعل حيوان بفريسته.

إنّهـا بكُلّها له. بفورانـه ونزعته الطّاغية يُمزّقهـا إلى قطع صغيرة ترتجـف. يبحث عن مَتعـة لا يجدها. وكانت زوبعـة من الجُنون اللذيـذ والفـوضى. وجهها يحتقـرُ حنقه الفارغ فينفجـر بالزيادة محمومًـا. ولمّا ينتهي يمقتُ نفسـه. ويبكي لماذا فعل هذا؟ يُعيدها تشرد دمًا من حيث وجدها. وشريط هزّاته الشـبقيّة يتبعه. شـعُرَ أنّه امتصّها على أخرها وأراق فيها هوسـه على أخره. أراح نفسه من عناء التحنيط في قبو فندقه. لم تمت مثل سلفها، الّتي بفضلها صنع مقعدًا مُغطّى بجلدها. يضعه في مكتبه الخاصّ.

(4)

طلـب منه عمّه أن يُنيلـه المال بما لا يُقاس شريطـة أن يُنزل له بنطاله مُتمهّلًا، فيكشـف عن عورته عمليًّا إلى ما لا نهاية، ويُبقي الأمـر سرًّا. كان عاجزًا عن أي ردّ. أشـار «طـلال» بعينيه أنْ لا. ليـس في ذلك ما يدعو إلّا لإنقباض الصّـدر والهرب مثل ضبابة في دُجى حالك. وكانت حياته على هذا الشّكل. لم يعد يحتمل أي إساءة من أحد. كان يخسر نفسه. يحلو له على بساطته أن يتلمّس طريقـه إلى بيـت «مرتقب» الّـذي أعطاه ضمّة. قلبـه يدقُّ دقّات مُلهْوِجة. تحوّل عزيف الرّيح إلى نسماتٍ دافئة.

اندلقت كلماته من أعماق ذاته. «أخبرني بصريح الصّداقة؟»

«الصّداقة، أن تكون جـدار صديقك أثناء حاجته، وليس أن تعضّه متى يكون مُحبطًا»

خلـع «طلال» عنه نظّارتـه. كان ردّه وهو ينظر إلى أعلى، مثل فرس نهر جائع:

«حسبتُ أنّها بسلب طعام صديقك»

انزلقت شـطيرة «مرتقـب بالجبنة والطماطـم في حركة فطريّة إلى يديه، على مألوف العادة. كانت بدانة «طلال» بالغة أشـدّها. لا يَنِـي عن الإفـتراس إطلاقًا، ممّا صادفـه التوفيق –في وقتٍ ما– بتوهّـج داء السّـكري. كانا يفطسـان وقت الأحـد في الغاب أو يتسـكّعان في الجبـال. عـلى الأغلب يحـوز «مرتقـب» الثلب من «طلال» ذلك أنه يتهادى أثناء سـيره. تجاهله. رفع يده إلى رأسـه غـير الموزون. وغطس في شرود يُحرّك في الأعماق أرقّ المخاوف. أحسّ شـيئًا خفيًّا يتبعه. الشـمس فاترة وضعيفة. تتهيّأ للمغيب المقيـت. يجهـل بُـؤرة وجله من المغيـب. ويجهل حكمـة الإله في الخلق. ويجهل النّقاط المحوريّة في وفاة والديه، واسـتحال جهله فيما بعد إلى ارتباك باقٍ. يتوثّب من فوق السّـور بمشـقة الهاجس الّـذي يتعلّق برأسـه. يُلعّبُ البول في وضعيّة غير مُحتشـمة. كانا مرصودين من شـبح سـيّدة ذات وجـه مُتجهّم، شـديدة اليقظة والنّقمة. تتجسّـم بعباءة سـوداء وعلى رأسـها قُبّعـة لا تقلّ عن قُبَّعة السّاحرات.

صدحت حُنجـرة «مُرتقب» «لن تُصـدّق ماهيّة الشيء الّذي اعترضني»

يلتقـط «طـلال» أنفاسـه المُتلألئـة بـرش بعـض البـول عـلى بنطاله. «أي شيء؟»

اعترضـه ثعبـان ضخـم، وكان غاضبًا. خلّص فـاردًا ذراعيه يخصّه بثقل الحيّة دون سـواه. يميل في اِسـترعاء التَنَبُّه من خلال سرد قصصـه المُرعبة. كان «طلال» يُريحُ فمه كسـيّدة قلقة أنهت فضيحة طازجة. «كاذبٌ» يعقد ذراعيه إلى صدره ويشمخ برأسه بعناد «رُح بنفسـك وسـتراها». مـا عتَّم أن اندفـع نحو «طلال» مُسـتطيبًا تخويفه بأسـطورة الأفعى الجائعة الّتي تسـترطُ الرجل السـمين. يتبادلان اللّكمات بـالأذرع. وبالطّريقـة عينها يقذفان بعضهما بكلمات فجّة. غربت الشمس، شاهقة. إغتنس السّانحة وعبثًـا أثقـل في ذُعر طـلال من مجيء الليل. ينتفـض هذا الأخير ويبتعد بخُطوه اللاهث تتنازعه تشكيلة الوساوس.

«أخاف الليل»

وقعـا عـلى شيء يُشـبه القـبر. يبتعـدان خشـية أن يسـتفيق العبـد المُغـبّر من غفوته. مُطبـق الأجفان ينتـزع «مرتقب» قطعة خشـبّية ضامرة كعود كبريت. ويغمرهـا في جوف القبر. تنطلق رائحـة التّراب عطنـة. بصره مثقوب مع الذراع الخشـبيّة. يرجمه

«طلال»–قلـق التّفكير–بصعقـة غـير متوقّعة. اصطـدم شيء ما بذراع الخشــب. يسـعلُ بأنفاس متهدّجة. يسدّ أنفه. ويتعجّل في إعانته. يحفر يده في التّراب لالتقاط الشّيء المشـبوه. إستلّ حقيبة مـن جوف القـبر. وأنبطح عـلى بطنـه. تكاثر البعـوض. أحسّ بشيء مُلتاع يلمســه. يهتزّ جســده وانفجرت شـهقة مُرتاعة تئنّ منه. يتلقّف «مرتقب» حقيبة سوداء نديّة من يديه. ويضعها على الأرضية خافض الرأس يتفحّص ويستوضح. تتألّف المُستكشفة من أشياء غريبة.

قال «طلال». «صُور لكلّ أهل المدينة ولُعبة جومانجي»

لا يَني عن الإهتزاز فزعًا. يكشّ الذباب عن وجهه. يجرّ نفسه جرًّا مُنقّبًا عن «مرتقب». يتعلّق برقبته على وشك البُكاء. يعتقلُ الصّراخ المذبوح في حلقه. كأنّ البكم أعاقه لحظتئذٍ. يرخي الليل سـواده وهواءه يتسرّع. تصدّعت عصا جافّة. تحوّلت أبصارهم إلى مصدر الجلبة على حين غفلة. تنبّها إلى وجود السيّدة الشّرّيرة كامنـة بمكان مُظلم. وجهها كالماسّـة من الصّبغ. ثارت نحوهما تتشنّج بمغناطيس تقودها بقرة مجنونة ناطحة. لا تدري أي شيء تفعل. مُفعمة بأسـلاك غضبى، عطشـى للنّقمة. تُرسلُ في طلب

التهدّم. وتشخب الدّم. شدّدا التَحَدُّر إلى الطّريق السّريع في حين كانـت تُشـيّعهم بهُتاف لـدوغ وصفعات الموت. تحـترق ببُركان أهوج. لا يُعيرونها أَضْعَف التفاتٍ. من تلك المُرعبة هُناك. لم تعد هُناك بل صارت خلفنا. شـفعت لهما سـيّارة عابرة لحُسـن الحظ كانت «رنين» تقودها. صعدا إليها خطفًا.

«ما أمركما؟»

«ساحرة شمطاء تتعقّبنا»

(5)

ذات صباح في تشرين الأوّل/ أكتوبر، كانت الشّمس مُشرقة بشكلٍ صارخ. المباني تصلي بالسياط المحموم. انطلقت الرّيح الباردة بعتوّها. بدأ الخريف في التقاط حقائبه مُنذ أيّام قليلة. تلمّست «رنين» المذياع المُضاء. لم يكن مُعبّرًا على نحوٍ جيّد. ينبعث منه أنّ زوجة رئيس الحكومة تُقاضي المُمثّلة على أساس هذا التصريح اللاأخلاقي. أطفأته. شاهدت ركض أولاد المدرسة من بعيد. تناهت إلى مسامعها الوشوشات والهمسات. يلعبون الغُمّيْضَة. يبحثون عن مهرب، مكان آمن للاختباء. يهتزّون بشيء من الحُبور. حالما يكبرون سيدركون أنّ هناك هزّات، لا يعود المرء بعدها على ما كان. كانت على دراية كاملة بهذه الحقيقة والأمر يعود إلى البيئة الّتي نشئت فيها إذذاك. نزل الطفل في مُؤخّرة السيّارة. لم تكن طُموحاته هي نفس طُموحات عصره. لقّنته «رنين» حبّ الكتابة والقراءة، لذلك يُريد أن يُصبح كاتبًا مُتخيّلًا. يُقارع الأشرار بالمُخيّلة. أمّا بقيّة الصّغار فلديهم إمكانيّة «الغُمّيضة» والسعي للتّواري الأبدي من الوحش الّذي

يُلاحقهم. في حين كان الصغار يفرّون من الوحوش المُترصّدة بهم، على حدّ سواء العُبّيثَة أو كما يُسمّيها البعض بالغولة المَخيفة، لم تستنكف الجدّة عن الهمس والدردشة. تعرفُ «رنين» ضمنًا أنّ هذه القصص كانت أساطير بحتة. يُمكن القول أنّها نادرة الوجود. لكنّ الريف، وعلى وجه الخُصوص من أهل المدينة أنفسهم، آمنوا بها. التّواطؤ هو الخديعة. لا أحد رأى تلك المخلوقات رأي العين بأيّة حال. ما كانوا يملكون دليلًا قاطعًا. هذا بالزيادة أنّ أخبار إختفاء الأطفال كثيرة النّشر. ربّما أي إمكانيّة أخرى كانت صحيحة. راودها شُعور أن المنزل قد اقتحمَ في غيابها بغير حساب. سُرعان ما ينكمش صدرها. لدى الإنسان رادار قوي بأن شخصًا ما قد عبث باحتياجاته، حتى لو وجدها كما تركها. كانت مُدعاة لتوتّر الأعصاب. هذه الفكرة في أعمق فحواها. يُذكّرها هذا بمرحلة آنفة من حياتها. مرحلة كثيرة الشُكوك. كل هذا الخوف يُوازي خوفها السابق. يجعل المفاهيم من حولها أكثر عتمة.

أحبطتها الجدّة مُتعضة. تُقاطع كلامها الآخر. «لا شيء واقعي على غير ثبوته. أنتِ خوّافة»

«أنا لا أختلق هذا»

انصرفـت إلى المطبخ لاطمة اكتنـاز وجنتيها وقد كانت بالغة الردّ«بلى. أعرفكِ تمام المعرفة»

تراطـم الهاتـف مرّة أُخرى أدنـى إلى البلـه. خواطرها غامت مكـدّرة من تكرار حياة سـابقة، شـأن كل الغوامـض الأُخرى. المشروطـة بموسـيقى ماضيهـا في مثل هذه الحـال. إلى مثل ذلك الخوف الراقص سـألت من فورها عمّا إذا كان السيّد «وزير» قد تحقّق من المنزل أثناء غيابهم.

قالت السـيّدة عبر الهاتـف بحماقـة. «ذُرّي الطحين في أرجاء البيت»

ردّت خوفًا مع حركتها الأولى. «عُذرًا، من أنتِ؟»

«أنتِ سألتِ وأنا أجبت »

وادّخرت ما تشعر به فعلًا:

«إعتقدت أنّه زوجي»

«إنّها ليسـت غلطتكِ، لقد أخطأت بالرقم ، ومع ذلك، افعلي ما أذِنُ به»

«شكرًا لمشورتكِ»

صادفت نَشْأَةً من السكينة. وكان بمقدورها الإكتفاء بالإستياء. على قدرٍ من الغُموض كانت سوى خدعة قديمة لتُعطي أمارة عن دُخلاء المنزل. كعادة أن يُترك مفتاح فوق قطعة من الثلج في الثلاجة لإعلامهم إذا قطع الدُخلاء التيّار الكهربائي في غيابهم.

ليس في هذا، إذن، ما تخافه أكثر من فكرة خوفها أنّها متبوعة. وكانت هذه الفكرة في أعمق فحواها. هذا شبيه بتفكير الأطفال. يُرجعها إلى هوان الطُفولة. غداة الغد، وجدت آثار أقدام ضخمة. كان من المُمكن أن تُصاب بنوبة قلبيّة. من جهتها أيّد هذا مع إتّصال المجهول. تركت الطفل يتلذّذ القشدة المخفوقة. لم تُخبر الجدّة بذلك. ستصرخ في وجهها بلا شكّ أنّها تختلق هذا وتُذّها. ثمّ تردمُ الدنيا عُويلًا. من هو الشخص الّذي اقتحم المنزل؟ وماذا ينوي بالذات؟ هو ذا الجانب المفقود من المسألة الماثلة. رنّ الهاتف على نحوٍ مُباغت.

كان صوتًا دون تكلّف. «هل فعلتِ ما أمرتكِ به؟»

«من المُتصل؟»

«سيّدة الأمس، بقيتُ قلقة »

«هذا لطفٌ منكِ»

«ماذا حدث؟ قولي لي»

«اليـوم دخـل شـخص مـا إلى منـزلي، خلّـف آثـار أقدامه في الطحين»

«أهذا صحيح؟»

«نعم كان فظيعًا»

«أسرقكِ؟ أكانت خُطواته عنيفة؟»

«لا شيء مسروق، شعرتُ أنّ قلبي على وشك السقوط»

«إنّه أمرٌ مُخيف»

«ما هدفه من هذا؟ نحن لا نعيش بأمان»

«أظنّه قد مكث فترة ثم غادر»

«وما أدراكِ؟»

«فرضيّة»

«سأستنجد برجال الشرطة لإيقاعه»

«هم أيضا شركاء في هذا»

«هذا فظيع»

«تُشارك الشرطة في هذه العملية القذرة»

«هذا مُخجل»

«ثمّة عمليّات سطو وأحيانًا يُمكن أن تسوء إذا لم تنتبهِ»

«هل اقتحم شخص ما منزلكِ بهذا الشكل؟»

«في أوقاتٍ كثيرة»

«وماذا فعلتِ؟»

«كنتُ أخفي نفسي وأفتعل أصواتًا مُرعبة حتّى يخاف ويُغادر في آخر الأمر»

«يجب أن أكون إمرأة مُستقوية ببُندقية»

«ستُعاقبين بالسجن إذا قتلتِ الدخيل»

«رهيب ألّا نعيش بسلام»

«هذه هي الحالة الّتي وصلنا إليها»

«أغلقِ أبوابكِ بإحكام»

«عاش أجدادنا زمان «الهنا» وتركوا لنا زمان «الهانا»

«أعتقد أن النّاس سيثورون بشكلٍ سيء»

«رَبِّي يُسْتُرْ»

لقد جُن العالم. حَكَت لها السيّدة كما لو أنّ الجدّة تحكي حكاية خُرافيّة-أنّ الجميع عاشوا ساعة الفضل في قديم الزمان. كُنّا نملك حياة ناعمة. لم نكن في خوف مثل الآن. برغم كل شيء كانت عمليّات السطو نادرة الحُدوث لأسباب، الآن مجّانيّة بلا إنقطاع، وفي أيّ وقتٍ من الأوقات. الوضع يزدادُ سوءًا. نعيش أيّام محسوبة وصعبة. إنّهم يجعلون العالم أسوأ من خلال تعكير صفو الأخلاق والأساليب في أسلوبه الباطل. بالإمكان أنّ تتولّدَ حصيلة مُؤسفة في وقتٍ لاحق. في هذا العالم يجب أن نخاف جميعًا قدر المُستطاع. أن نكون حذرين ونستمرّ في الخوف. ولكن ليس من الطبيعي أن نعيش على حال لا يخلو من العُنف. لقد قادونا إلى النُقطة الّتي لم نعد نعرف فيها ما هو عادي وما هو غير عادي. والمقصود هو إنشاء عالم مريض يُثير البلبلة. ينجم فيه الأحد الأقصى من العداوة.

كانـت الجدّة أُعجوبة من الهدير -وسـعيًا مُسـتمرًّا للإذلال- لحاجتهـا الدائمة بأن تُرى. زِدْ على ذلـك تبدو مُدعاة لصغطٍ ما. لا تُظهر شـيئًا من الجانب الإنسـاني. مُتوسّـطة القامة ومُستديرة الشـكل. لديها شعر أبيض مع شُـعيرات بالحنّاء. تلبس نظّارات دائريّة ذات حجم كبير. رأسـها نصفه ملفوف في وشـاح. وكل مـا أصبحت تُجيده مُؤخّـرًا هو طيّ الشراشـف بتضجّر واضح. وهذا كل شيء لامرأة مُسنّة فقدت جزءًا من بصرها. لديها جين يكنى العامل الخامس ليدن. أي أنّ دمها يصنع جلطات. تناولت مضادّات التخّثر بالرغم من إصابتها بسكتة دماغيّة قبل عام. كما عانت من التهاب الوريد. الانسـداد الرئـوي. حار فيه الأطبّاء. ومع ذلك تحظى بمتّسـع من الوقت في هذه الحياة. كانت جالسة عـلى الكنبة متـى ترامى إلى أُذنيهـا صرير فتح البـاب وخُطوات خاطفة. تبذل ما في وسـعها لتفحّص هويّة الدخيل. مرّ شخص مجهول ودخل غُرفة السيّد «وزير». مكثت الجدّة ساكنة، مُتصلّبة الأطراف. مأخوذة برُعب لا يُوصف. تجرّأت مُتباطئة وسـحبت قدميهـا بثبات وبصرها إلى الحائـط. تتلافى أن تتلاقى نظراتها مع نظراته. يداها مدسوسـتان تحـت الملاءة. هذا أخفّ حدّة. كانت

توجس ممّا رأت. يتزايد الطنين بعقلها. لا يتركها الاهتزاز لحظة واحدة. تكتم خربشات أفكارها. برغم كلّ شيء، ما هي إلّا هُنيهات حتّى تسلّل الرجل الغامض من الغرفة على الأثر. تنبَّه أنّ الجدة كانت في المنزل. وقف طويلًا أمامها. تَكَلَّفَت الجدّة أنّها ليست دارية بأي شيء. بحِرفيّته مرّر يده في فراغ الوجود من حين لآخر. لم يندّ، من جهتها، سوى ارتعاشة يد صامتة وآفاتٍ أُخرى. كأنّها مُجرّدة من كلّ وجود. كان أيضًا يُعينها على إخراج أكبر قدرٍ مُمكن من الهلع. لا يَنِي عن فعل ذلك. يفرض وجوده عليها. ولأوّل مرّة -مُتمالكة عطسات مدويّة- تُظهر موهبة خفيّة في الأثناء. لقد أُتيحت لها الفُرصة لإتقان فنّ الاقتصاد في رُدود الفعل. كأن يقبضَ الخوف أنفاسها. ولا بُدّ من السّعي للسّيطرة على النّفس. يلحّ عليها بكل الأسباب المُتزايدة على أن تفقد توازنها. في مُستطاعها أن تُؤدّي دور الحمقاء بكثير من الحيلة. وتستعين بالصمت عليه. كان هذا يُزعجها. وأشياء أُخرى عديدة. ألم الصداع النّصفي يعلوها. يبدو الأمر مُرهقًا. تشعرُ بالحاجة لأن تختفي. حسبهُ أن يُلقي فحصًا سريعًا عليها لكي يُدرك أنّها مُدركة بواقع وجوده. قد راقَ له هذا الجو. «عجوز بلهاء» قال الرجل الغامض هذا، تاركًا إيّاها في حالها. بمعمعة

حازمة راحت الجدّة تسترجع أنفاسًا قد حبستها. ما سبق لها-ولو في المُخيّلة-أن سقطت في حوض الخوف هذا «يا له من حيوان» خرجت كلماتها مشروخة. وتكتفي باللعنات الخفيّة. فقدت رغبتها حتّى في تناول طعام الغداء.

أُصيبَ السيّد «وزير» بنوبة أرق وكان التفكير الفلسفي ينحتُ مناحي رأسه. يخْلُصُ إلى التساؤل عن سبب وجوده. ثقل التفكير المُضطرب يجعله غير قادر على العمل. لا يزال مُزْمِعًا على المسير في هذا الطّريق المُنفلت. لا يتوقّف عن إدمانه. مآل هذا الهوس غير محسوب العواقب. يمضي راكبًا سيّارته ويهوم بين الشوارع ليُطارد فتاة ليل أخرى. وقائع لا تَنِي تحدث. ينقلها إلى فندقه حيث كان يسمح لرجال الحزب الحاكم بتفريغ أعباء التعب وإيجاد العزاء في العبث ببعض النّساء. وما عرف أحد من عائلته هذا الوِصر بينه وبين رجال الحزب الضّباع. كان حسبه أن يُزوّدهم بالغُرف لقاء أن يفعل-هو الأخر-ما يشاء. هذه مدينة مُشتّتة وتتألّم، فليفعل الأقوياء فيها ما أرادوا. والَى أن يحتفي بالجميع وما عاد، باستثناء جاره-الّذي لا يدري أنّه عمّ طلال»-والّذي كان يراه شخصًا بغيضًا. لأنّ المعتوه يرغب في

جلـب الأطفـال. كما أنّه لا يفهـم أنّى له أن ينـال درجة الإجازة والماجستير والدكتوراه في ثلاث سنوات فقط. وهذا نزاع يطول شرحه. وذلـك الاضطراب متى ينحسر؟ يقع في حُفرة سـحيقة الهوس. يستسـلم للنّهـم الحيواني. زخّات المطر تنسـكب كدمع حزين. يجب أن يسـتكين من شـهوته الوخّازة الّتـي بُليَ بها. فتاة الليل مُبعثرة. تعول وصوتها فيه استنجاد. تصرخ مُنهكة مكتوفة الأيـدي والأرجـل. الجُـدران مصنوعـة من عـازل للصوت. لا شـكّ أنّ صرخـات الفتيات اللائي كُـنّ في وضعهـا ليس ببعيد عـن صرخـات موقعها الشـقيّ. بكلتا يديه كمّم السـيّد «وزير» فمها وكسَـبع سـقط عليها بحملـه الثقيل. تنتفـخ عروقه. يفور دمه نافورة هائجة. يضرب الأرض بقدمه المُتعرّقة شلّالًا. كانت عيونـه تُفجّر أنوارًا دامية كالنّار الّتـي يُطلقها التنين النّافث. فتاة الليل تغطُّ غيمة هامدة في نوم أبدي. لكنّه استمرّ في جنونه. يهتزّ كثـور جَائِش يُربكه الهدوء. ذهب به التفكير إلى كيفيّة التخلّص منهـا. سـينتزع جلد وجههـا ويصنع لوحـة باهـرة يُغلّفها فوق مكتبه.

(6)

في عشـيّة تشريـن الثـاني/ نوفمـبر لم تكـن حادثة الجـدّة هي الوحيـدة مـن نوعهـا. كان لا يـزال الصقيـع في أيّامـه الأولى. شـكّلت «رنين» قُرنفلة فوق أذنها تُغالـب الفوضى الخفيّة بتمايل جسـدها في حركات مُشاكسة على إيقاع الموسيقى الكلاسيكيّة. تُطبق جفنيها، ساهية. وتتقدّم بخُطوات طريفة. أطرافها مُترامية كما ينبغي. ثمّة شـخصٌ مجهـول يرقبها من فُتحة الباب دو تردّد. اعتقدت أنّها قد سـمعت شـيئًا مضمونًا مئة بالمئة. مالت برأسها نحو الكتاب الّذي تحتضنه. معروضة للجهة الّتي يأتي منها الهواء. كان الجـو صحـوًا. وحافيـة القدمـين تُواصل مشـيتها على خطٍّ مُتعاكس. تشـتعل حماسـةً. تدور بحركة لولبيّـة ترقص بحرقة. ظـلّ الشـخص المجهـول يترصدّهـا. يتعـالى صوت الموسـيقى فتـدور حول نفسـها عكس دوران عقارب السّـاعة، كريشـة في الهواء الطلق. تشـعرُ بإرتجاجات مُتواتـرة. تُعيد الحركات إيّاها. ويشـتدّ رقصها مجونًا. كأنّها فـأرة تطوف فوق قصديرة. تنبّهت، بفواصـل زمنيّة، لجلبة بالبـاب. جنحت حركاتها نحو الخفوت،

راكدةٌ. يحدوها اليقين أنّ هُناك من يتبعها. سُرعان ما اختفى من الجهة الأخرى تاركًا صفيرًا حاد. أصبحت الأركان ساكنة حتّى صدح جرس الباب مُتمهّلًا. تُجيل بصرها بحدقتين مُتعبتين. تشعر بكثير من الضيق. صاحبها الخوف الشديد. ضربها السُأم. شرّعت الباب بإندفاعيّة صريحة، لتتبيّن حقيقة الأمر.

تلكّأت جارتها مع وقفة حازمة لبعض الوقت.«أرجو المعذرة، لا أرغب بإزعاجكِ»

أحسّت بقرصة صقيع.«لا إزعاج في الأمر، لا شيئ آخر لديّ لأفعله في هذا الوقت»

ثم قالت «ستعتادين على إزعاجي»، أذاعت ضحكة مُقتضبة وأطلقت طبق المُعجّنات لتستلمها «رنين» إذذاك.

«كنتُ أرغبُ في التعرّف عليكِ»

«هذا من دواعي سُروري»

«لستِ على أحسنِ ما يُرام»

«حسبتُ أنّي سمعت ضوضاء قبل قُدومكِ بهُنيهاتٍ»

قالـت وقـد كانت تسـعى لدعةِ السـكينة. «لم أرَ شـيئًا عندما أتيت»

«ألا يُصادف أنّ مثل هذه الجارة الجميلة لا أعرفها»

عدّلـت الجارة صدرة الصـوف. كانت طاعنة في السـنّ. ولا تخلو من الغرابة. أسرّت لها أنّهما لا تعيشان في حيَّين مُختلفين كيلا تتعارفا. سارت خلفها مُجيلة أنظارها على طول المنزل.

«شاهدتكِ يومذاك تتجوّلين بين العربات رفقة حماتكِ»

« انّني أتسوّق برفقتها، غالبًا»

«لكنتكِ ريفيّة، من أين أنتِ؟»

انطلاقًـا من هـذا التهكّـم الصريح أخذت «رنين» مُسـتقرّها في حقـل رُؤيتهـا للجارة ولم تبـد جوابًا. غلبهـا النُعاس لفرط ما طالت بها السكينة.

قالت الجارة:

«أنـا من أصل ألماني تزوّجتُ من إبن هذا البلد وقرّرنا العيش هُنا»

لم تلبث أن غمرها الضجر حتّى ضحكت بصوت فيه حشرجة، ممّا أشاعت انطباعًا مثل الريبة في دخيلة «رنين». أثنت رأسها إلى الأسفل، داهشةٌ. وبطلب من المرأة المُسنّة جلستا في المطبخ ليتبادلا أطراف الحديث. فالمطبخ كان مُريحًا ومُشرقًا أكثر من الصالون. أبدت ترحيبًا وإستحسانًا بحُلولها. أعطتها كُوبًا من الحليب بما يُلائم سنّها دون الحاجة إلى تقديم البسكويت.

«كيف تعرفين أنّ مطبخي أكثر راحة من الصالون؟»

قالت جارتها وكان فيها شيء جعلها تفلت من هذا السؤال:

«لم أقصد ذلك. جميع المطابخ مُريحة للدردشة»

لم تجرؤ الجارة النظر ناحية «رنين». ولم تستطع إلّا أن تُغطّي بطنها بيدها طالبة الحمّام في حركة صميميّة. ومع ذلك، فإنّ الجارة ما كانت باحثةٌ عن الحّمام، ولكن عن شيءٍ ما. دون أن ترُاودها أيّة خاطرة أخرى دلفت غُرفة السيّد «وزير» بحذر، دسّت شيئًا يُثير التفرقة والخلافات بين الزوجين، وسرقت الأوراق الممدودة وحزمة المفاتيح. متى عادت-مُنذ بعض الوقت-أخذ الصمت مُتواليًّا، أكثر وضوحًا حتّى اقتنصت الفرصة لتنصرف. عندما

قامت بفحص الأوراق المسروقة وجدت أنّها محض رسومات ساذجة للطفل «مرتقب». أمّا أمر تلك المفاتيح فكانت لمنزل أقاربهم المُهاجرين. كان الاستياء يتوالى وقد أصبح مُتزايدًا أمام زوجها. مثل كل الأخطار الّتي طفقت.

سحبها بسُرعة خاطفة ثمّ صفعها وحركاته وحشيّة. «إمرأة حمقاء»

ردّت تحت الإضاءة الرديئة. «لا يصعب عليّ أن أعود الأسبوع المُقبل»

أطلق ردّة فعل أدنى حماسةً ممّا يجب. «هذا غير مُمكن»

«صدّقني حين أقول ذلك»

تسقطُ ذارعه اليُمنى باسطًا كفّه بالتماسك الكافي والسيل المُتدفّق لدلق غضبه:

«انهضي»

عاود بطلاقته سُقوط يده نحوها متى شاهدها تنهض:

«لا ترقدي هُناك»

ولمّا كان قد أكثر من ضربها ركلها بجزمته الكاوتشوك. دلف «طلال» ووجد جسد زوجة عمّه مليئًا بالكدمات. أمّا ما كان من أمر «رنين» الحائرة، فكان لابُدّ لها من إخفاء علامات مجيء الجارة حيث أنّ السيّد «وزير» يتلافى استقبال الزوار في كل الظروف.

بحُلول ديسمبر، خلال ذينك الأسبوعين لم تسر الأمور على أكمل وجه. كان الجوّ قبيحًا جدًّا عندما تغيّب المُدرّس، وبمُجرّد أن صارت القاعة فارغة، تهاوى سقفها. كلّ غرف الطابق باتت مُغلقة. ساد اعتقاد أنّها مأهولة من قبل وحش أسطوري. المدرسة كانت مقبرة في وقتٍ ما. لقد سبقت الأقاويل تنتشر بين الطلّاب الصّغار عن تسرّب فقّاعات من شُقوق الأبواب والشبابيك. وبمثل ذلك الخوف استشهد بعضهم حتّى أنّ ثمّة من يهمس ويطلق صيحات فزع مُتراطمة. وميّزَ آخرون من خروم الباب مُهرّجًا مُعلّقًا في الفراغ مُشتعلًا مثل الفولاذ المصهور. كأنّ ريحًا تُلامسه. مُبقيًّا أحد الصغار بين ذراعيه. يُفرشخه إلى نصفين. يبتلعه بوضعيّاته المُمكنة، كما يبتلع «طلال» شطيرة «مرتقب». ويتلهّف توقًا لفعل نفس الشيء مع باقي الأطفال. أبلغت

تخيّلاتهم غايتها؟ فمُنعوا من الدُنوِّ من الطّابق. غير أنّ دورة المياه كانـت لصيقة له. الأرض تنتفخ من تحت «مرتقب». انفجر الماء كرشّـاش دموي. أحسَّ بتصلّب عـاتٍ. في مكانه يمكث هو لا يتحرّك. اعترته دعوة واجبة إلى التقيّؤ. عَجِيج السّاحة الّذي يمتدّ من مكان يجهله ويصل إليه. جمر جهنّم يغلي في جوفه. تلفّت من وقتٍ لآخر وعضلاته مشـدودة. في طريقه–على الضّد قُدُمًا–إلى قاعـة الـدّرس اعترضته مُجسّـمات سـوداء. اختلطـت كومة من خفايا الأُمور المُروعة. والرّؤى المُفزعة الّتي هاجمته أثناء خُطواته الحثيثة من الدواليب إلى القسـم. تجلّى أنّ شـيئًا ثقيـلًا جاثمًا عليه كالقِصَاص. باشَرَ بحبس أنفاسـه المُتسـارعة. ينام متوتّرًا. تيقّظ مـن غفوتـه ينزّ عرقًا غزيرًا. يهزّ رأسـه ويصفعه بطـرف الطّاولة الرطبـة. خُلّفت له كدمة ورديّة. لوي أقرانه أعناقهم. وحدجوه بنظرة مشبوهة. يتساءلون في سرّهم عن ذريعة ضيقه. له أن يقرأ هواجسهم السّاخرة. «ما الأمر؟» يقول «طلال» بلكنة مبحوحة ذات معنـى. ويُغادر خطّ الـكلام ما أن صار المُدرّس على مقربة. وضـع يده على كتفه بطبيعة تعامله. وقال مخشوشـن الصّوت في

حنـو «كنتَ نائما لم أشـأ إيقاظك» يكتفـي بالتّحديق. رنّ جرس المُغادرة. فانبرى في حركة انسيابيّة كالبارود المُشتعل إلى الخارج.

كان الأبيض في عينيها قد تورّد متى رغبت الجارة في مُكاشفة «رنـين» أنّ شـقيقها كان قد اعتزم ترك ألمانيـا إلى صِقِلِّية. لقد مر بالعديـد مـن الأشـياء المُعقّدة خلال السـنوات القليلـة الماضية. انتقل بها الحديث إلى إنّه على دراية بأشـياء كثيرة. مُنذ عام «كذا» كان يُسـاعد النّاس في غامبيا والسـنغال، إنه تحدٍّ دائم، غالبًا بين الحيـاة والمـوت. الحياة فرع يمـوت فيه الأبرياء. سـعى إلى تلافي رؤيتهـم يموتون في البحر. الأمر الّذي صقل عاطفته. وهذا كُلّه لم يمرّ دون شـعوره بأنّه عالق في زوبعة من السآمة. لقد فعل كل شيء لفتح مُستقبل لهم في صِقِلِّية. كل ما يحتاجونه، كان الدعم. أوروبـا تـدسّ أنفهـا في كل شـاردة وواردة. تخلـق اختـلالات وترفـض رفضًـا قاطعًـا أن تتحمّـل عواقبهـا. ربّما لهذا السـبب أيضًا انسـحب حتّى الطرف النّهائي مـن أوروبا. أبلغني في آخر مكالمة أنّه أنقذ حياة مُهاجر. لقد كان بالفعل يطفو على الماء لكنّ الليبيين حملوه وعادوا به إلى الجانب الآمن. لحُسن الحظ تمكّن من الفرار. الحـارس الليبي مأجور ومُوازٍ مـن الاتحاد الأوروبيّ لمنع

المُهاجريـن وتعذيبهم. أوروبـا تُريد الاحتفـاظ بامتيازاتها وهي الآن أسـوأ حتّى مـن أي وقت مضى. أظهرت «رنـين» قدرًا من الشـفقة. وهذا ما كانت تتقصّى عنه الجـارة. أن توقظ في أعماقها إحساسات الألفة الباهرة.

قالت بنبرة عطف. «وكيف حال شقيقكِ الآن؟»

«كان في قلـب المأسـاة، في هذه الأثناء يتدبّر أمـره جيّدًا، لكنّه عانى»

«آمل أن يجد السّلام»

جلست في نصف جلسة وأردفت:

«لقد هدأ كثيرًا ومع ذلك تعرّض للتعذيب في ليبيا»

«الإنسانيّة عملٌ صعب تجعلنا نسأم من الأعماق»

«أشعر بالأسف من أجله»

«لأيّ شيء؟»

«تسـتقرّ زوجته السّـابقة مع أطفاله في سـويسرا، لم يرهم منذ سنواتٍ شتّى»

«يا للمسكين»

«لقد قادهم أصهاره ضدّه وما زالوا في قبضة التأثير»

«ما السبب؟»

«إنّها قضيّة طويلة، كان يُريد أن يعرف كل شيء بشفافّية كاملة»

«وكيف؟»

«أنتِ تعرفين فعلًا ما عنيتُ بهذا»

« عفوكِ، لا أعرف إلى أي شيء ترمين»

«الجميع يعرف»

«يعرفون ماذا؟»

«ألا تعرفين؟»

«أعرف ماذا؟»

«ينبغي عليكِ أن تعرفي»

«حقًّا أنا لا أعرف»

أشاحت الجارة بوجهها، في هذا المجال ساخطةٌ. ولفرط ما تتجاذبها الأفكار الفتّاكة كانت على وشك التفوّه بأشياء لا تسرّ

البـال. تُؤهّلها قواها دون سـواها بفعل المكائد الآسرة من وقتٍ إلى آخر. طفحت مسـحة من الكآبة على مهل. كان الظلام يلفّ حول الشـبابيك متـى ولّى السـيّد «وزير» راجعًا إلى مقرّ سـكناه مصحوبًـا بالضجر الّذي يُعانيه في الوقت الّذي كانت فيه الجارة تحسّ بشيء مـن الارتياح لإنجاز أمـرٍ ماكر. اعتقـدت أنّ لها ما يكفـي مـن الزمن. مجيئـه في هذا الوقـت ما كان في الحُسـبان. في حركات لا تهـدأ لم يصعب عليه طرد الجارة. ما كان لديه الرغبة في الإدلاء بـأي تصريحات مُبـاشرة. وأنّه ليس مُرغمًا على الولوج في نقاشـات. بـدا عـلى قدرٍ غير مُسـتبق مـن الوحشـيّة في وقفته الثابتة. وشـديد التوجّس. بوثبة رشـيقة غادرت الجارة مدفوعة بأذرع غاضبة. تُبدي كمّ شـعورها بالمهانة وتُسابق الريح. «ليس في حُـدود علمي أنّكِ تسـتقبلين الزوار أثنـاء غيابي» قالت الجدّة مسـحورة بالإستياء ذلك أنّ الدردشـة فاتتها. «كُفّي عن التلفّظ بالحماقـات يا أمّي» صخب صوت السـيّد «وزيـر» من الأعماق. فوجمت بعد أن عرفت حماقة ما قالت. مضى إلى حُجرته. ركضت أصابعه–بعشـوائيّة وهمجيّة–بـين عُقدة عُنقه وحـزام بنطاله. في آخـر الأمر خلعـت الجارة الباروكة عن شـعرها والمُلصّقات من

وجهها. تفحّصت نفسها في المرأة. كانت صديقتها الماكرة «رياس» الّتي من الريف. جاءها «طلال» من الخلف وخلّص إلى التساؤل عن ماهيّة الزي التنكّري القبيح. فألجمته بإخرس.

ما كان في مُستطاع السيّد «وزير» أن يُفرغ حُمولة غضبه سوى باصطياد فتاة ليل أخرى. ثمّ سقط بين الطرقات على واحدة تتهادى في سيْرها. اندلعت رغبة مُضطرمة تصدح بنباح شرّير كمخالب أسد هائج وإِكْتَنَفَ جسدها. يسعى للنظر في عينيها. ويهرع ليثقب الصراخ الحارق. تتشنّج فتاة الليل فوق السّرير الوافر. تصرخ اتركني. فلا يتركها. أنّى له أن يتركها؟ سُعال ممزوج بالصّعقة. تنفخ رائحة الشّراب شروخه المُتكدّسة بالعُقد الّتي لا تنفكّ بإدلاء أنّه إنسان مُنحطّ. تغرس فيه-فتاة الليل المُكمّمة-أظفارها، فتخدشه وتمزّقه. يسيح دمه لزجًا. يمتصّه بشراهة الهمهمات المُفترسة. يوقظ فيه ما بقيَ من الوحش النّائم. يشتعل جمرًا وكراهيّة. يتأجّج البُركان بأسرع من غمض العين في البئر المُظلم للإشعاع النووي من الشهوات. دوّامة باردة تهبّ حاملة العَجَاجُ لتطرد كل ذرّة رصانة من رأسه. بلغ نُقطة أحطّ من الحيوان. تنتفض فتاة الليل مُختنقة. ارتخت ساكنة. لا حركة

فيهـا. صـار القبو أضيق مـن أن يدفن فيه جُثّـة أخرى. عزم على المضي إلى الغابة قبل سُطوع الفجر. لم يكن يدري أنّ غريمه الّذي يكون عم «طلال» يُراقبه. ما حسبَ للرصد حُسبان.

قال الطّبيب النّفساني في حيرة. «ما أمرك؟»

«إنّي أفقد نفسي»

«هل تُواظب على أخذ الليثيوم»

يصمت ولا يُجيب. لأي شيء يهرب من السـؤال؟ لكنّ شـيئًا مُظلمًا يكتسح في العُمق.

«كلّا»

«لا يُمكننا أن نفعل ما هو أفضل دون تناول الأدوية بانتظام»

حكـى لـه والقلـب يعتـصره أنّ الليثيـوم أخمـد لـه رغبتـه. والنكـوص عـن أخـذه يُفجّر شـهوة مـا في اسـتطاعه إطفاؤها. يسـتحيل وحشًا شبقيًّا تشكّلت الخَسَاسَـة والاعتباطيّة والجَهَامَة والغَلاَظَة في أسفل بطنه. لا يجد حلّ وسط بين هذا وذاك.

«إنّي أضيع»

«أخبرني عن وسيلتكَ بالتخلّص من الرغبة الشديدة لديك»

«لا أدري من أين أبدأ»

«زوجتكَ؟»

«كلّا، في آخر مرّة انتهيت فيها، نزفت بعض من أذنها»

«أ تجد معنى في ذلك؟»

«لم أقترب منها منذ سنوات شتّى»

«أتمم»

أخفى الجزء الغامض من الحكاية. «تحوّلت إلى اصطياد فتيات الليل واهانتهنّ»

«سننتقل إلى العلاج المعرفي والسلوكي»

لخّص الطّبيب القول أنّ ما به يدخل تحت مُسمّى العلاقة بين الجنس والسياسة. رجل يجد القمع لشرح وجهة نظره داخل عائلته يتحوّل إلى السعار الجنسي من أجل إفراغ قمعه. رجل يُمارس سلطته من خلال الكبت والاستبداد وتجويع غيره بكمّ ما يكون الجوع الجنسي في ذاتيّته. إذ يُذل من يواقعهم، ينعكس الإذلال طرديًّا على الطرف الّذي يُمارس معه. يسرق حقوق

الآخريـن بكـمّ مـا تكـون حقوقه مسروقـة أصلًا مـن شريكته، فيهـرب أوتوماتيكيًـا إلى البغايـا ليفعل بهـن ما يُريد متـى يُريد. الكبـت الجنسي ليس لـه أن يتوافق مـع مصطلـح الديمقراطية. وحده الكبت يُولّد النّاس المضطهدين. الاستبداد السياسي يُعيد تشكيل نفسه من خلال الجنس.

(7)

نحو السّاعة الحادية عشرة تقريبًا من ذلك الليل لمعت عيناها خوفًا. توسّدتذِرَاعَيها على مفرش الطاولة. كانت خاملة وفي سعيها على طرد، دون جدوى، ما كان يجيش في قعرِ ذاكرتها. لها تصوّرٌ شديد الأثر أنّها تقفز بثقل جسمها عائدة إلى الرُكن النّائي من غُرفة المعيشة. تضرب الأرض بجماع قبضتها ورأسها تنحني إلى رُكبتيها. الألم يجتاح الرأس المسكين. تُعاني من ضيق فظيع. ما هي إلّا هُنيهات حتّى انهارت في مكانها، غائمةٌ في خيالها. لا تني عن الأنين. العتمة لا تزال تنجلي. شرع الصباح في بادئ إنبلاجه. في ساعة مُبكّرة من الغد، قُرِعَ الباب بإندفاعةٍ. شعُرت بلسع الصقيع. كان أحد الجيران يتمالك ذاتيّته قلقًا في حين يتوسّل لاستعارة هاتف أرضي لبُغية مُستعجلة. قريبه الّذي في صقليّة سيتّصل به. يقصدُها في حاجة وكان طلبه مُجاب. سلّمته إيّاه وفي صوتها ما نال منه الضنك. سوّت الكثافة الأوفيرموتش لشعرها ونظرت إلى ندبة كبيرة تلفّ وجهه الأيمن. يسود حوله انطباع بالريبة. نفس الأشياء يقوم بها السيّد «وزير» كلّ صباح.

أن يرتدي قميصًا بلون القشـدة. أن يشـدّ حزامه. أن يُشدّد ربطة عُنقه. أن ينتعل حذائه ويكبس خيوطه. أن يرشّ نفسه بالعطر. وتستقبل عائلته والمدينـة جنوناً خادعـاً. كانـوا يتناولون طعام الفطـور متى عرف السيّد «وزيـر» بالأمر. «أي نوعٍ من النّسـاء أنتِ؟» صدح صوته وطال به الغضب في نصف إغماضة. وأنشأ يُمطرها باللعنات.

قاطعت الجدّة معركتهما المُحتدمة:

«هل يُخبرني أحدكما رجاء، ما الأمر؟»

مُستشارة وجّهت «رنين الملامة بينما تكزّ على أسنانها مُعترضة:

«ولكنّ صبري لن يمتدّ إلى نُقطة إهانتي»

«ويْحكِ، ماذا تعتقدين أنّكِ فاعلة»

«لم أخفِ عنكَ شيئًا »

«حسبُكِ كذبًا»

بلهجتها الشـجيّة قالت شـيئًا من إفشـاء لا يخلو من الحقيقة. «هذا ما أعجز عنه تمامًا، أن أُناقش معكَ»

«ما تقولينه لا يمتّ بصلةٍ إلى واقع ما حدث»

: تتألّق بوهج مُضطرم

«أبإمكانكَ أن تهدأ؟»

«كل ما في الأمر هو أنّكِ ترفضين الإعتراف بخطئكِ»

«ليس الأمر كذلك»

«صمتُكِ خيرُ دليل»

وردّت واثقة اللهجة:

«أنتَ لا تعرف شيئًا»

يسعى للسيطرة على إحساسه بمُداعبة حزامه من خلال صُراخه الحادّ:

ومضى إلى الحمّام كابسًا عُقدة عُنقه إلى أن احمرّ وجهه. «إنّني أثنيكِ عن التصرّف بهذا الشكل»

كانت دُموعًا موصولة تغمر عينيها متى أشاحت بوجهها، عابسةٌ. يحدث أن تخجل من حالها. وتُردّد نظرات أسى خالصة. لم تجد من نفسها ما تُدافع عن نفسها. وما حيلتها في الردّ. وليس لها على أي شيء آخر. أخذ الجو يركد. في غمرة تشنّجها

العصبـيّ بدأ الصّبي الصّغير ينقلُ ميله إلى عدم الذهاب إلى تلك المدرسة الحمقاء بعد الآن. إنّها أشبه برجل الكهف الّذي يخطف الصغـار. أدرك السـيّد «وزيـر» أنّ الهاتف الّذي عـاد الجار به تمّ العبث به. الأمر الّذي دفعه إلى رميه في أبعد سـلّة قُمامة. لم يكفّ الهاتف الجديد عن الرنين، لاسـيّما قي مواقيت النّوم. يكاد يكون هو نفسه كلّ يوم. ذلك أنّ المُلقى به قد دُسّ فيه جهاز تنصّت.

قالت السـيّدة مُصرّحة أنّ هذا النّظام عبارة عن صُندق دُمى. للحيطان آذان. بدلًا من ذلك يعتمدون على الأسـاليب الخاضعة للرقابـة، والمقصـود هو خلق عالم مجنون. تحسُّـبًا لأي غضب قد ينتهـي بـه إلى انقلاب. ليس مـن الطبيعي أن نعيـش على جريان الخوف وتدفّقه في مكنوننا. لذلك أي شـخص مُسـتهدف بلون مـن ألـوان التتبّـع الأكثـر إبتـذالًا. و لـن نتفاجـأ إذا حصـل لنا اكتشـاف وُجود مشـاكل عائليّـة وحتّى عقليّة بسـبب هذا. بل، سـيكون لـه أبلغ التأثير على المدى الطويـل. أتيتُ على ذكر ذلك عـلى الأرجح. الجميع سـائرًا على اتّجاه هذا النظـام. يبدو مُحطّمًا. كلّنا مُعلّقون في الفـراغ كالدُمى القُطنيّة. وأعضاء هذه الحُكومة في مَيْلها إلى الجُنون في مثل هذه الأُمور. إذ لا شيء ممّا نُشاهده إلّا

ونشـعر به في أعماقنا ضعفين. ذلـك أنّ الوضع الراهن-الّذي لا مفرّ منه مُشـوّه-ولا يسـع المرء إلّا أن يصبر عليه طول أناة. هذا عيب مثل العتمة المُباغتة. أتباعهم يحوزون على تجاوزات باسقة. ليـس مُتوقّعًا صنيع أشـياء من هـذا القبيل وبـأدراجٍ لا توصف في حقّنـا. كيـف لا يتحـرّك النّاس بشـأن ما يحدث؟ إنّـه لمُربك أن نتعلّـم أبدًا حِيـلًا جديدة عن هذا النّظـام الّذي يريدون حقنه فينـا. وفي الجهـة الأخرى كانوا عـلى دراية من أنّهـم بالفعل على حق. في أوقاتٍ ما يشـعر الأبرياء منهم بالاسـتياء تُجاه أنفسهم. هذه الحُكومة تتضاعف في كتـمان على أكتاف العُملاء. يُرغمون الإرهـاب وبَعْث الضيق بالمقدار عينه. مع لمسـة مـن التفرقة. لا ينبغـي أن نسـتمع إليهـم عـلى نحوٍ خـاص. وهذا لـن يُحلّ دون عصيان.

قالت تُفضي مسـحة من الشـكّ وتسـحب كمّ السـكينة الّتي كانت.«راقبي زوجكِ، لعلّ حبله يمتدّ من هذا»

«كيف؟»

«هذه كل الحِكاية»

لبُرهـةٍ أحجمت السـيّدة عـن الكلام كما يُمكـن أن يفعل أي شـخص يضع السُمّ. ولمزيد من الدقّة أغلقت الهاتف. ألقت من فمهـا قطعة القُـماش مُهلّلة بهالة مـن الـشُرور. أطلقت ضحكة أشـبه بضحكة الخنزير المُدلّل بينما تقرأ كمّ السّـاعة الآن. تركت لها شبابيك الظّلام مُشرّعة. خلفها، كان زوجها جالسًا كالعُلب المُتراصّفـة، يعبث بحزام بنطاله، حيثُ يُتاح له أن يسـتمع إلى ما كانـت تقوله. كانـت صديقتها «ريـماس» من الريـف، كذلك. غـير أنّ شـيئًا من الرهبـة، كأنّه طاعون الريبة، قـد حلّ في دخيلة «رنـين» بمُجـرّد التفكير في الأنـف ذكره. مأخـوذة إلى عالم قائم في أبعـاد قصيّة وإليه ترتمي. كرّرت ما سـمعته لثوانٍ ولا يسـعها إلّا اسـتيضاح أطرافه المُلغّزة والمكتومة. تستلمُ لوساوس قاتمة في أكثـر مواقيت النّهـار بردًا. كأنّها جُبِلتْ بأحاسـيس مُختلطة. عمّ صمتٌ لم يُعكّره حتّى صوت الجدّة. «تُخفين مُحادثات الهاتف منّي كذلك» تُفرط الجدّة في الهذر وكانت أكثر تطلّبًا.

لم تكن حادثـة «مُرتقب» الأخيرة، بل تكرّرت مرارًا. تضاءل عـدّد الصّغـار الّذيـن يذهبـون إلى الدواليـب. كانـوا مُدعـاة لإحسـاس المُباغتة. يتعلق نصيب الواقعة هـذه المرّة بفتاة تغيّبت

عـن الفصل لأزيد من نصف ساعة. عـادت مُطنطنـة، مُلتهبة، مُمزّقـة السّروال حدّ مُنتهاه. تنفّسـها مُتقطّع. بـدت فيها كدمات وعليهـا علامـات الهلاك. ثمّة مـن حاول أن يعتـدى عليها. كمّ أبكاها. لشدّ ما خوّفها. يتلاشى وجود المُعتدي إذ بقدوم حارس المدرسـة. تتجمّـع وجـوه الأطفـال في تدافـع صقيعـيّ حولهـا. يُمسـكونها كيْلا تهوي، في حين كانت شـابكة ساقيها. وكطبيعة الأطفـال، لا يُفلحون في إِكْنان ما حصل لهم. منذُ ذلك الوقت-وتلك الحادثة-تغيّبت الطِّفلة عن المدرسـة لأشهر متتالية. تجاوز الكبـار انفعالاتهـم. ولّت راجعـة كالبلهاء على قدر من السُّـمنة وأثقل سـنًّا. يندثر جمالها إذ يسـتحيل قُبحًا. وقلبها مُتقيّح. تفعل كل ما في وسعها لكي تبدو عبثًا كما كانت.

فصـل السـيّد «وزيـر» الرأس عن الجسـد. اسـتخدم مشرطًا حادًّا ومُدببًا لتقشير الجلد عن الوجه من أسفل الحنك. وبشغف جريـح ينبـض بالإثـارة عـبّ حـوض الاسـتحمام بالمـاء وملح النطـرون الجاف والقرنفل المطحون. أنزل جلد الرأس لسـحب كل بقعـة ماء بداخله. وتنشـيف الخلايا من الزيت تنشـيفًا تامًا. ومضة رعد مُفجعة تهبّ في جسـده. مُشـتّت الذهن يصبغ جلد

الـرأس بـمادّة الراتينج السـائل لتغطية كامل مسـام الجلد، ولمنع التأثـيرات الخارجيّة مثـل الرطوبة وتسـلّل الحـشرات الكريهة. قطعـة مُتوسّـطة الحجم من الخيش حـول الفم مـن الداخل. ثمّ قـام بخياطته لمنحـه مظهرًا مُطابقًا. كان يطنّ للمُوسـيقى المُرعبة المُنبعثة مـن الراديو. في الضبابة الحالكة يُلصق منجزه في بورتريه أبيـض ويُلوّن العيون الفارغة. عويل المَتعة ينسـحب من حلقه. يفـرد ذراعيـه كما لو أنّـه يطفو فوق بركـة دمّ. كان واثقًـا من أنّه في مُسـتطاعه أن يخلق الفنّ بالقتل. كان فيه سعادة ناقمة مُذْعِنة. وجهه يرعف الحقد والعرق. يتراقص شـبحه من خروم النّفس. يغلبه شعور أنّه مشدود إلى ماضٍ لا ينشقّ عنه.

(8)

كانـت مُنحنية-إلى الأرض المعشوشـوب-تجعل الأعشـاب المنفوخة أضأل حجمًا. تنظر إلى اليعاسيب والزنابير تُحوّم حولها. وصوت ألة التنظيف في ذلك الصباح هدير. ترضخ إلى ألم الظهر بسـهولة. هزّت رأسـها صُعُدًا نحو الغيـوم وعُلوّها. أهو تردّي الشـعور بالطّاقة؟ أو التماسـك الطويل والهـيّن حتّى تهالكت بلا جُهـد. ليـس ثمّة ما يدعـو إلى الصُمود تمامًا بعد هـذا الوقت. لم تعد مُتكافئة على حافّة السكّين. كأنّها على الرمق الأخير. تشـعر أنّ عظامها قد عُجِنتْ عجنًا. كان لسُـقوطها ذلك الصدى الّذي يجيز بفـراق الكون الوجودي. كان آخر شـيئ رأته يتبدّد، الجدّة وقعقعتها عن أي شـيئ حلّ بها. سألها طبيب العظام عن موضع القلـق. إنّه ظهري ومع ذلك بالكاد اسـتطاعت أن تُقدّم شروحًا خجولـة عن ألمها حتّى إنّ النّاظر إليها بنظراتٍ ثابتة يعتقدُ لفرط تعبهـا أنّ أمـواج الموت تتلاطمها. ومع ذلـك، ما قالته لا يصف عـمّا بالفعـل تحسُّ بـه إذذاك. إنّ ألمها الحقيقي طـيّ الكتمان. ينال منها في المُواراة. أبدًا لم تكن في موقف مُماثل.

«لن أقبـل تفحّص التحاليـل بخلاف المكان الّذي أرسـلتكِ إيّاه»

قال السيّد "وزير" مكان "رنين". «إنّ الأمر يتعلّق بالتأمين»

قال وقد كان كمن لا يعنى بمشاكل الآخرين:

بدا غريبًا جدًّا. «أنا أثق فقط في المخابر ومكتب الأشعّة الّذي أرسلتكما إليها»

كانـت أوجاعها تتدفّق مثل شـلّال حـارق. يصحب عيونها مسـحة حُـزن. وليس لها الشـكوى مـن أي شيء. لون قسـماتها مُزرقّـة. تحت الخضوع الأكيد، أُعيـدت جميع التحاليل الملحاحة ولم تكن حصيلتها تختلف عن تلك الّتي أُجرت ولا لبس فيها.

صرف لهـا عقاقـير وأجبرها عـلى شرائها من متجـر الأدوية الّذي يعرفه. «لديكِ بعض الروماتيزم»

قال السيّد "وزير" مكان "رنين". «إنّ الأمر يتعلّق بالتأمين»

قـال كمـن يُديـم الألم مـكان إزالته. «أنـا أثق فقـط في أدويّة الصيدليّة الّتي أرسلتكما إليها»

لم تشعر بأي إمتثال لمشيئة الشفاء. وآماها مُدلاة. وفي الأغلب طلب الطّبيب ماسح ضوئي للظهر. وذكر أنّها، بالإضافة إلى البرد، مُصابة بتقارب الفقرات السُفلى. على طول إمتداد أخذ الأقراص لم تشعر بلذّة الشفاء. دعى الطبيب إلى إجراء الرنين المغناطيسي.

قال يسلكُ سُلوكًا جافًّا:

«أنتِ مُصابة بعرق النسا»

«أنتَ لا تشرح واقع مرضي»

«أنا أكتشفه فحسب»

«من خلال الأخطاء الطبيّة؟»

«وما ضير ذلك؟»

«أصبحتُ ضعيفة ذلك من الأدوية الخاطئة»

«لن يحدث لكِ شيء»

بدا صوتها أقلّ إمتلاءً. «ينقصكَ الجديّة في التعامل»

«أعتقد أنّكِ موهومة»

«ليس إلى هذا الحدّ»

«ما أدراني أنا؟»

«أما كُنتَ تدري؟»

«كلّا»

«هذا إقرارٌ مُهين»

«لا أعرف ما هو مرضكِ بالضبط، لديكِ الكثير منها»

«سيّان عندكَ إذا تعافيت أو متُّ»

أحالها إلى طبيب نفسي.«لا أقتدرُ شيئًا لأجلكِ»

تدفّق ردّها الحِمَمْ.«أنا جادّة فيما أقول»

في وثبة سريعة خرجت كشُعلة تُقْدَح من الغضب. مُخلّفة جلبة عارمة. وفي آخر الأمر أضحت هذه الأخطاء الطبيّة تُرعبها. وحالتها أشبه بضبابة ديسمبر. شعُرت كأنّها مُدعاة للابتزاز ما أمكن. وأنّها ضعيفة تحت وطأة المرض أسهل ما يكون. وليست سوى مريضة بلهاء. وأنهّ محض شخص شره للمال. كانت أكيدة في إعتقادها. وأشياء كثيرة من هذا التفكير. الأمر مقصود. ومتى ولّت راجعة لتأخذ ملفّها الطبّي، بالصدفة سمعت مكالمات تُدار بين السكرتير ومركز الأشعّة ومركز التّحاليل ومصرف

الأدوية، ذلك أنّ الطّبيب يبتغي قِسْمه من عوائد هذا الشهر بعد أن أرسل ١٧٠ مريضًا وصرف الأدوية الخاطئة لـ٢١٠ شخصًا وبعث ١٦٠ حالة إليهم. أبدلت طبيب العظام. فقدت طاقتها حتّى للردّ عن الأخرين. ومع ذلك، أسرّت لطبيب العظام الآخر أنّ كلّ هذا بدأ مُنذ عدّة سنوات. كأنّها مُسّت بنار الموت. كانت الجدّة هي الّتي اعتنت بالطفل من ولادته. ليس رائجًا أنّ زوجها كان سندًا لها. أُصيبت بنزيف شاهق وتُوفّيت. لم تبلغ من العمر ثلاثين عامًا بعد. وبقُدرة قادر انتزعها الإطار الطبّي من مخالب الموت السّاحقة. كانت مُعجزة القدر على حدّ قولهم. لقد دخلت في غيبوبة. مكث الطفل دون اسم وغير مُسجّل. عادت من الموت ولم تكُن بمُفردها. تبعها شيء مجهول ومُظلم من بوّابة الموت الّتي فُتحت من نصفها. لا يَنِي شبح ما حدث لها يُطاردها. لم تتردّد عائلتها في لومها على جعل هذا الشيء الشرير يُرفرف خلفها. الإنسان كائن ضعيف. حدّد لها الطبيب اختبار كثافة العظام. وكان توقّعًا أنّها مُصابة بهشاشة العظام. وصف لها الكالسيوم وفيتامين د٣ على شكل حُبوب تمتصّها كل صباح. أكتونيل قرص أسبوعيًا لخمس سنوات. يُقلّل هذا الدواء من

مُعـدّل ارتشـاف العظـام، من خـلال التأثـير على خلايـا ناقضة العظـم، ممّا يُـؤدّي إلى إعادة تمعـدن العظام، ما أمكـن. عليها أن تمشي لمُدّة نصف ساعة مُوجعة لئلّا تصلب أطرافها.

قالت الجدّة مُشيحة بنظرها عنها. «هل ستمتثلين إلى الشفاء؟»

ردّت مغلوبة على أمرها. «لا يحلو لي الشفاء»

«فلا تحزني»

كان لصوتها ذلك الأسى الراحل إيّاه. «لن أُشفى وحسب»

«إنّه لأمرٌ مُؤسف»

ردّت أمارة على إنهيارها الكامل. «ما باليد حيلة»

«كل ما تمرّين به سوف يمرّ»

«ذلك مُنتهى ما تبقّى لي من الحياة»

«حياة الإنسان كلّها، بدايةً وخِتامًا، من المُعاناة»

كان الطّفل مُتسوّلًا إيّاها في خفقته المجنونة حتّى تُناوله حفنة من النُّقود. مسكون بضيق يقبض أنفاسه الشائكة. يُريد شراء بعض الفواكه الجافّة والشوكولاطة. فوق الأرجوحة يقفز

من خلف إلى الأمام. يطير وسط طاحونة كالفقّاعات البرّاقة والمرشوقة. في السكون الجامد يُحاصره المُترصّد بالألغام الأكثر حذقًا. يصيرُ سكنًا، صلبًا، لا حركة تندّ عنه. كانت «ريماس» تضغط على كتفيه مزرعة بالظلام–يخترقها الغُبار–وتمدّه بلوح شوكولاتة. بالتودّد المُقنّع ترتسم، تلتصق، وتلتحم. صوتها الشّوكي يتدفّق شوقًا لتقصّي سرائر العائلة الّتي أضحت مثقوبة كشهقة موت. تنتظم أنفاسه ويحكي لها هذا العنقود كقط مسعور شريط آلامهم الباكي والتلاشي. فضلًا عن الكدمات في قلبه.

لم يبدو من العلاج جدوى. وطريقها نحو السَلامَة ليست إلّا ضوضاء وحماقة. ولا شيء على الإطلاق. ضاق بها المرض. طوّقتها الأعين الرّاصدة. تلهث بوحشيّة. تتصفّد عرقًا. تناهى إليها زيادة صاخبة، تصل من الفناء الخلفي. الباب يُخبط وكانت تتخبّط. قلبها يُلطخ. والجدران تُقرع لحظات مُرنّمة، كأجراس الكنائس. ثمّة شيء يرتع..يسعى إلى الولوج و تَحْقِيقها بلا حِساب. فترامت على الباب مُقيمة به. ترصد الحركة المُباغتة كخيط مُكهرب بلغ أثقل ذراه. الباب يختلجُ بغضب البُركان المُتواري خلفه. مُدركة أفواج الظنون آنئذٍ أنّه ما باليد حيلة.

سيُقلع ويحوز منها الشيء المخفي مثل قصفٍ عنيف. لكنّ ذلك الخوف، بل الفزع، دفعها تتلوّى إلى الدّور العلوي بملء جُبنها وقرفها. قطعت الطريق إلى غرفتها قفزًا. تختفي في قلب الخزانة، كما الأطفال. هفهف الشيء في أثرها. وقبعَ مُتابعًا بعثراتها. ليس لها أن تتصدّى له. لا تُجيد التّعامل مع المخاوف. أجادوا بأذراعهم المبتورة زرع بُذور الرّعب فيها. صرخت ألمًا مُتابعة ركضها نحو عيادة طبيب العظام. وينبعث منها أجيج لشِواظ النّار. في هياج عظيم أحالها الآخر إلى طبيب نفسي على أساس أنّها مُتوهّمة. ارتأى أنّها تجعل من نُدفة التعب مرضًا. أمّا هي لم تكن، من جهتها، موهومة. أو أي شيء آخر من أمراض النّفس. دلّ التحليل الّذي تَكرَّمَ به طبيب الأسرة أنّها لا تُعاني من الوهم، ولكن من إختلال هرموني ذلك من النّزيف واستئصال الرحم. صرف لها كليماستون ٢/ ١٠ وهو دواء لإعادة التوازن الهُرموني. شقّت طريقها إلى الشفاء. واسترجعت ألقها وحيويّتها. داومت على سيادة البيت نيابة عن الجدّة.

تعزفُ الحكومات معزوفة قذرة، من أجل التسلية. لهم أن يرتكبوا أي شيء لِحيازَة قدرٍ لا بأس به من مُتعة تطلُّ على تحطيم

طاغٍ. إذا كان بإمكان الجميع التفكير في الأمر مثلنا. متى يمرض أحدنًا، يزلُّ الطّبيب في التّشخيص ونصعد نحنُ على متن سفينة أدوية لا نتمالك فيها تفكّك ما يحدثُ في جوهرنا. ينسجمون مع الأطبّاء لقتلنا بالعقاقير الّتي لا أساس لها نظير رحلات ومُؤتمرات وفوائد أُخرى. أنّى للطبيب أن يهبَ إيقاعًا مُطولًا من الأدوية المُغالطة دون أن يشعر المريض بالشفاء، ثمّ يحصل له اكتشاف سوء تشخيصه؟ ذلك أنّ الطّبيب يتبنّى ترتيبات مع مصارف الأدوية للتَمَلّص من العقاقير الّتي دنا تيّار انتهاء صلاحيّتها. إنّها عمليّة مُشينة ومُمَنهجة فيها الكثير من المُخاطرة بنا. يُلقون بنا واحدًا تلو الآخر في التهلكة. ذلك الخداع يُزاولونه ضدّنا في مُطلق الأحوال. وكل ما علينا فعله هو الالتفاف على الخداع، وعدم الانجرار على خلفيّة التّشخيص الأوّل للطبيب، ذلك يُربكُ قسمًا من صحّتنا. نخدع الطبيب بأنّنا نأخذ الأدوية دون أن نُدركَ الشفاء. أن يخدعنا الطّبيب فنقوم بمُخادعته، ألا يكنى خديعة الخديعة. لن يتكبّدوا الأَذِيَّة النّاشئة عن ذلك. أعرف أنّ هذا التفكير أوسع من المنطق ويفوق التوقّعات. كأنّها خُرافة. لكن ذات يوم سيتضمّن فيه الحقيقة ويتعيّن عليهم الرُجوع إلى

الحسـابات. هذا ما بلغني عن الّذين خاضوا تجاربكِ. ثمّة أطبّاء شُرفـاء وثمّة من ينجرف في سـيادة المبيعات هذه. قد يأتي بنتائج عكسيّة عليهم إذا شـذّوا عن أهواء مَيْمَنَة الحُكومة. الأشخاص الّذيـن كانـوا مـرضى وخاضوا خبراتـكِ لم يعد لديهـم دفاعات مناعيّة ويلتقطون جميع الفيروسـات من حولهم. يُسـوّون أشياء بمـواد مُسرطنـة كذلـك. ثمّة برنامـج قاموا بإنشـائه لأصحاب السلطة يُنذركِ من خلال قراءة رمز شريطي. يُومئ إلى شراء مواد صديقة للجسم. ليس لدى عامّة النّاس لمُحَرَّكات ضمنيّة. الطعام والشامبو ومعاجين الأسنان والعطور وكل شيء آخر مُشتبه بأنّ فيها مادّة مُسرطنة، مثل ثاني أكسيد التيتانيوم على شكل جُزيئات نانويّـة وأملاح الألومنيوم والزيـوت المعدنيّة وغيرها. حتّى مياه الصنبـور متسـخة، ألا أنّهـا مياه الـصرف الصحي المحليّـة. إنّها حرب خفيّة مُقنّعة. يقتضي القضاء على كثير من النّاس. في حين أنّ كل هـؤلاء الرجال الحُكوميّون الكبار في دَعَة. لا يتمّ تضمين الرَتْق في رُسـومهم. بدلاً من ذلك يُموّلون المشـاريع الّتي تسوء بالبيئة لإحداث كوارث طبيعيّة، يتأذّى ذوو التكوين الواهن من الاحتباس الحراري والغازات السّـامّة. فسـيقلّ عدد النّاس على

هذه الأرض. يُثقلوننا بخُطط شـقيّة. هـذه القصّة لن تنتهِ. نحن نعيـش في عصرٍ مُظلم بأبخس الأثمان وأعنف من ذلك. لن نعي إلّا بإنفتـاح كَبِـدَ الحقيقة، باب الشّر عـلى مصراعيه في وجوهنا. وبـما أنّ البـاب به ثُقب صغير جـدًّا تتسرّب منه بعـض الشُرور، يجب أن نتعايش مع أقل قدر مُمكن من الضرر في ظل هذا الخداع المُنهـج. لابُـدّ علينـا أن نتغابـى وسـط القطيع. وربّـما يجب أن نتحاشـى القطيـع ذلك أنّه منشـأ الحَاجَة السّـالبة والقُصور. كما ثمّـة بيوت شـتّى خالية، وذلك مـن زوال أهاليها مـن الوجود، حيـث كانـوا بلا عائلة أو أقارب، فقد تلاشـوا فجـأة. أدلّل لكِ بالبيّنة العديد منهم لجأ إلى العيادات والمصحّات الخاصّة لإجراء عمليـات طارئة، ولم يخرجـوا. ماتوا أثناء أخطـاء طبية وأُزيلت أعضاؤهم السـليمة. خلّصت «ريماس» من القيل والقال جذِلَة، وفيـما تُغلق الهاتف مسـكونة بأماكن من الشُرور معَسـت الخيط الموصول بالكهرباء. مشـفوعة بقهقهـات لا تتمالكها. وباقة من الظلام.

وَالَى «مُرتقـب» و»طـلال» أن يجلبَا لـوح جُومانجي ونينتندو إلى بيـت الأهل المُهاجريـن للعب فيه. كانا يُصغيـان بين آنٍ وآنٍ

إلى ضَجَّـة ولَغَـطٌ. وفي مـرّة مـن المـرّات يطرقُ سـمعهم صوت سُـعال مُفرطـح مأتاه من الغُـرف المُقفلة. وَلَّى «طلال» فـارًّا نارًا حاميّـة وفيه ملامـح الموتى. كان «مرتقب» شـخصًا ما أن يرتاع حتّى تضيق أطرافه ويأخذ في التعرّق مُنْزَوٍ. نشـب سُعال يتفكّه، تلاه ضحكة شرّيرة، فاسـدة وخافتة. مثل لسان ثعبان يتخفّى في الهاتـف، يتحيّن الهجمة المُتفجّرة. رُجّ الباب المُغلق عتيًّا كشـلّال رجراج. اسـتيقن «مرتقب» حدفه الدّاني. وبئـسَ مصيره. عيناه تغـوران. لم يتوقّـع أنّـى انطلـق مُنبعثًا صامتًـا كالصُدفـة المُباغتة هاربًـا. جُـرَّمَ بالتخايـل وأنّـه أصاب «طـلال» بشـائبة التخايل كذلـك، ذلك من لُعبة جومنحي. مرّت فـترة مُختصرة، هدأ فيها الخـوف وعادا ليسْـتَتِمَّا الفِلْقَـة الباقية من اللعبـة، حيثُ وجدا في الحديقـة قططًـا مُلقاة بـرؤوس مخرومة وبـدون أعصاب. صبَّ بالحادثـة عـلى الثعابـين الّتـي سَرَحَت مـن الغابة. بَـسُرَا بمعرفة أنّ الأفاعـي لا تصـل حتّى إلى الطّريق الرئيـسي وتقتلها القطط. تُخـصّ الهرر بوافر العناية من حيث المـأكل والمشرب كي تمَهَرَ في تأديـة مهامها ضدّ الثعابين. كان اليوم الّذي وجدا فيه الشـبابيك ذات الأصفاد الحديديّة المتينة مرفوعة إلى الأعلى من نفس الغُرفة

المُقفلة والّتي جاء منها السُعال والضّحك الشرّير، مُفزعًا. قُذِفَ التَبْكِيت على المُتسلّلين. كانا على نَجَابَة ضمنيّة أنّ الغُرباء لا يدَ لهم في هذا.

أخبره الطّبيب النّفساني أنّ اضطراب ثنائي القُطب من الأمراض الّتي تدوم مدى الحياة. سيُنصّب جهوده لفهم العوارض. لابُدّ من الانتظام على الأدوية لكفالة مُوازنة مزاجه ومُكوثه هادئًا. الإمْسَاك عن الدواء فيه انتكاسات لا تُحمد حصيلتها. القسم الآخر يعتمد على المُداواة النفسيّة. وكونه أبى المُعالجة العائليّة فسيكون ذلك فرديًا. تنشأ هذه البرامج على ثُبُوت التنضيدات اليوميّة كضبط مواقيت النّوم، ومُمارسة الرياضة، والامتناع عن المشروبات الكُحوليّة، وعدم تناول الوجبات السريعة، لما لها من تحويرات مزاجيّة عنيفة. سلّمه الطّبيب جدول أعمال أَبَانَ فيه بإيجاز طبيعة المرض برمّته. إِلتَمَسَ منه أن يُحدّد عدد المرّات الّتي يتحوّل فيها مزاجه وكيفيّة إدارة المواقف المُزعجة. أيضًا، يُعدّ تلافي الانفعالات أحد الأركان الأساسيّة لبدء العِلاج. أتى إلى ذكر الساديةُ الجنسيّة كلون من

ألوان السياسة السّائدة. يجب ألا يرضخ لمثل هذه الأهواء الّتي تُقلّل من شأنه.

«ينبغي مُقاومتها والصدّ لكلّ ما يُحاول التضخيم منها»

علّل له الطّبيب أنّ سراديب العقل النّفسيّة كامنة في اللاوعي حول التجزّأ والتشظّي الّذي عاشه الفرد، وكان سببًا للطي في حُلكة الذاكرة لعلاج الحالات الّتي لم يقتدر حلّها. تبقى محبوسة إلى أن تتجلّى من خلال الانفلاتات وبشكلٍ لاواعي. إدّعاء معرفة الإنسان لذاتيّته ليس إلّا إختلاق. تظهر صورة الإنسان الحقّة خلال النّضالات الّتي يُواجهها والّتي تفلت من سيطرته. وإنّ زلّات الإنسان أثناء الغضب أو المزاح أو السهو تُعدّ مُجسّمًا بالغ الصغر ممّا قيل آنفًا. ولإعادة بناء هذا الكائن الإنساني الفضفاض، من الضروري الكشف عن اللاوعي الّذي تكمن فيه النزاعات ليتفاعل مع الوعي ويجد العقل توازنًا بينهما. لا تقتصر المتعة أو اللذة على الجنس السادي لتلبية الإِنحِرَافات اللامقبولة فقط، بل على حب الذات، أي الرعاية الذاتية الفائقة، والعنف، والقسوة، والمراقبة، والتهرّب من المسؤوليّات، ونشر البلبلة، والشجار، والقتل. وكلّ هذا يقود الإنسان إلى تلاشي نفسه دون أن يُدرك ذلك. بقدر ما يتعلق هذا الإنسان السّادي

ببيانات الواقع الاجتماعي ليظهر بشكلٍ معقول، بقدر ما تكون مُمارساته لنزواته بطريقة غير معقولة. إنَّ الأنا الأعلى ليس سوى نتيجة لسلطة الفرد على الفرد. وهو الوسيط بين ما قبل اللاوعي والوعي. والأنا الأعلى من منظور آخر يُمثّل تحقيق مطالب الأشخاص ذوي القيادة العليا. وما قاله الطبيب جعل السيد «وزير» يتذكر الوقت الذي وقف فيه مع مطالب رجال السلطة بفتح أبواب فندقه لإشباع أهواءهم. زايد الطّبيب أنّ هذا الموقف ناتج عن تصرّفات عنيفة كان لها السّادي هدفًا يسيرًا. كشف السيّد «وزير»-في حين يعصر حزام بنطاله- أنّ والده السياسي كان يشرب ويشرب. ثمّ يتلذّذ بإذلال والدته أمامه. ناهيك عن التهميش والقمع. كان يخلع حزامه ويصلبهما. قوّة لا ردع لها تحكمه. بدأ شريط الطُفولة ينضح من شقوق الذاكرة المُعتمة. من هُنا نشأ شُعوره أنّه دون فائدة. خرّ مُحبطًا من طاقته والمدينة بأسرها. شعر بنزعته لأن يبكي أكثر ممّا ينبغي. كان الجُرح المفتوح يُفجّر الألم. بدت حياته عُقود من العذاب الأسود. ويجمد لسانه فجأة عن اللغط. كأنّ رأسه سحابة تنوس فتذوي حيث الصمت والحُطام. يمكث مُنتصبًا يتأمّل السّماء الّتي ضُرِبت بالغيوم.

(9)

تدفّق جدولًا فجّر واقعـة هزّت أركان المدينة. مثل مغنطيس جذب أسـماع النّاس المُشرأبّـة. حارس المدرسـة يلتهم الأطفال بقاعـات الطّابـق المنكـوب مثـل عنكبـوت مُتوحّشـة. لم تكـن الوحـوش الخُرافيّـة تسـكنها، وإنّـما الوحـوش الآدميّـة فخًّـا. خُفّضـت عُقوبـة سـجنه إلى أربع سـنوات ذلـك أنّه كان قـوّادًا للحـزب الحاكـم. سـنّت «رنـين» سـكاكين نظراتهـا المُدبّبة إلى «مُرتقب» و»طلال»، تغتالهما بتفريط الهزّات.

«أ فعل بكما شيئًا»

«كلّا»

«أهذا صحيح؟»

«بكلّ تأكيد»

«شكرًا لكَ أيّها الربّ»

ظلّ «طلال» على سـكنه للصمت الأرعن كعصفور راعش. حدّثها عن أشجانه الشّرسة المحشوّة بالتحديق. نظراته مغروسة

مجمـرة حتّـى القلـب وضاجّـة كطبـل. كصفـير ناقـوس ظمِئٍ مُسـتهلكًا. من خلال دهاليز الوجـود المُتوحّش مع هذر الخوف يُحاول قريبه المُفترس أن يفعل أشـياء له. شهوانيًّا مُقرفًا يلحق به فاقع النّقمة. ويُشهر عبثًا أسلاكه المُكهربة.

بالـكاد أدخلت نفسـها بـين ثيابها. مَشَّـطَت شـعرها–وعلى قِصَرِهِ–عجـزت عن إتيـان البقيّة الباقيـة. وضعت بعض المصل لمنحـه سُـطوعًا. مسرحيّـة السـأم العاريـة تُعاد كلّ صبـاح. فقد تألبت عليها الأيّام. سـلبتها إرادتها. والمرض اكتسـح مساحة لا بأس بها من سـكينتها. وسـنّ لهـا قوانين ليس لها الحيـاد عنها. لم تروقها نفسها، إذ كان فيها أمارات التّعب وليست في قُنَّة بهائها. كانـت مُشـتعلة كالأنوار المنثـورة وما عـادت، ذلك أنّهـا فاقدة جـذوة الحيويّة. حسـبت أنّ هُناك من يرصدهـا من خلال المرآة. يحدجها بنظرات لولبيّة. وتسّـلل الضبـاب عبر الآذان الصاغية. يهـفُّ خَبَلهـا والوسوسـة المُمتـدّة. مُجيلـة نظرهـا إلى الأركان المُشرئبَّة. هواجس تشـدّها، وأخرى تردُّها. تقـرّر منها أن تأخذ حذرها من أفكارها، حتّى نفسها. وطارت مثل أجنحة كاسرة. تسـيح مُتوعّكة بين شـوارع المدينة. تحسـبُ لكل خطوة حِسابًا.

تلتف إلى الوراء. تبحث عن شيء يُعضدها. لا تُبدي مشاعرًا. لا يترك الإهتزاز أركانها. مخاوفها الطّويلة لا تنتهي. تحسّست أُذنها والنّدبة الّتي خلّفها لها السيّد «وزير» أثناء أداء واجباته الزوجية في وقتٍ ما. ضربها العطش. حلقها كقطعة ليمون جافّة. تنكش شعرها. حتّى الصّمت سخط في وجهها. تدبُّ في أحطّ الطرقات الّتي استحالت إلى مُستنقع مُتحرّك يبتلع السّاقط فيه. اصطدم بها شخص يحمل لوحة عليها كتابات: «يتزوّج المرء في النّهاية من الشخص الّذي لا يفهمه ثم يقضي ما بقي من عمره مُحاولاً فهمه»، فريدريك باكمان. هبّت سَهُوك من الرِّياح. ولم تعد تلتفت إلى الوراء. أسى أن تكون في حالها آسنة مُعلّقة بخيوط المُهرّج. كانت مُستوحدة. أضحت باحثة عن مُلاقاة أحد. ومع ذلك، ما من شخصًا يُمكنها الرُكون إليه، عدا البحّار. تصل إلى حُدود شاطئ المنشيّة. كان خاليًّا من المصطافين. وقفت فوق المرتفع الرملي. لو تعرّفت على هذا البحّار من ذي قبل لكانت تزوّجته مكان السيّد «وزير» وأنجبت نصف دستة من الأطفال ولنامت غير آبهة بالأمر على أصوات الأمواج ورائحة الأسماء ونعيق النوارس لا أكثر. والأكثر رجحانًا أنّ القارب لا ينتظر

المُـتردّد، ومع ذلـك كان قد يغيّر مجـرى حياتهـا إذا انضمّت إليه سـابقًا. كانت هـذه الفكرة في أعمق فحواها. بـين آونة وأُخرى يسترق البحّار النّظر ويُغافلها من الخلف. لم يفقد شيئًا من حسّ الدعابـة لديه. هذا من صميم طبعه. قرأ التيه الناطق من عينيها. تنكمـش كـوردة ذابلة. ومـا كان لأحدٍ منهـما قادرًا عـلى النُطق بكلمة. سألته عن شأنه.

قال على محمل الهزل ورمى حجرًا على سـطح الماء. «ليس ثمّة ما أرويه عن نفسي»

صوت يُشبه بداية البُكاء. «أشعر بالضيق دائمًا»

«ما الأمر؟»

«لا يُمكنني أن أفهم نفسي ولا هذه المدينة»

«حاولي ألّا تنغمسي فيها كثيرًا»

«لم أفهم»

«أطلقي عبستكِ فحسب»

حدّثته بما جرى. «إنّها بماثبة بئر مُظلمة تبرز شرورها لنا»

«سأتكلّم معكِ بصراحة من يخدعكِ خادعيه»

«مدينة مُرعبة تسكن داخل الزُجاج»

«هذا شيء لا يصحّ ذكره، هنا لا ننتصر إلّا بالخديعة»

أضاف:

«يجب أن تجعلي من شخصكِ مُخادعة»

كان المدّ خفيضًا ومنسوبه لا يعلو. تقرأ البحر الراكد ولا شيء يُلائم ما يعتمل بداخلها. أمعنت النّظر بالقارب. طرقها الضجر مرّة أُخرى. الفكرة واحدة. والتجربة واحدة. وتكرار حُدوثها خديعة. كان لديها بعض المآخذ حيال ما قاله لها البحّار. لا تجد فيه عزاء. هل كانت واضحة فيما تقوله؟ حول الاقتراب منها أكثر ومُراضاتها بضمّة حميمة وسميكة. لا يشعر بأي حرج. أعرضت عنه مُهتاجة وغير واثقة. كيف أمكنها أن تفعل به ذلك بحق إله السّماء؟ لا يرى دافعًا من صنيعها. تعاظم ارتيابها بأن يكون واحد منهم. لعلّ في قادم لحظاتها خداعها الخالص، كذلك. «ريماس» زرعت في دخيلتها سواطير الشكّ المحمومة. ألم تُطوّقها بتبيان حقيقة أنّ تناثرهم في كل الأمكنة؟ ولعلّها تكون هي الأخرى من ضمنهم. تُواكب مجرى الخديعة وتنعطفُ

عـن البحّار. خطر ببالها أن تهرب. تتلفّت من أن يتبعها وتسـعل خوفا. من دون سـابق تفكير سقطت نحو البيت سُقوط السّوط والعصـا والهـراوة. ألقـت الأكيـاس في المطبـخ. الجدّة تُشـيّعها بنظرات كالمنشـار المُهتاج. وممرّ الحمّام-الّذي فيه أقدامها-تسرح فيه كالأفاعي. ضاقت عيناها-مشدودة بتراخ-باتّجاه مرآة الحمّام في تفكـير. وكان مـن في المـرآة يحَدِّثهـا بِـشَرٍّ بالتلميح والإشـارة عـن أنّ زوجها مشـكوك في أمره. لا يَنِي مـن في المرآة عن تغليب صوته. يصرخ بلسانه الدودي في مُستنقعات السّحالي والضباب الأسـود. يُرخـي عليهـا لوثته. وكانـت «رنين» في طويّة نفسـها تلتـزم الحذر. تسـتحيل شريانًا يرعد نزف سـنواته. ولّى الضّياع يسـكنها فقّاعـة صابـون طائرة وأعصابهـا عاريـة. أقبلت عليها الجـدّة، فوجدتها مطعونة بصوتهـا وآهِلة بالتوقّد مثل الأسـلاك الكهربائية المُتراقصة.

تكلّمت على نحوٍ زادت فيه المطبّات:

«ما الأمر؟»

حسـمت الموضـوع بلهاء، فاسـتفاضت منثورة مـن الزجاج المسحوق:

«عقّد المرض فكري، وأثلج دوافعي»

مشت بها الجدّة بخطى مُتَّئِدة إلى الصّالون حيث تمدّدت فوق الكنبة والخوف يتملّكها. كان جسد «ريماس» الفيزيائي غاية في الرعب. تُمارس من منزلها الإسقاط النّجمي. هيأتها النّجميّة تتراقص بين مرايا بيت «رنين». تتفحّصها بعيونها الماكرة تفحّصًا يُفزعها. تجتذب تفكيرها وتشدّه إلى بحر الريبة والوسوسة. تتراقص كسمكة قرش كاوية. أيّ إبليس يمتلكها. شاهرة قرناها، قرنيّ الشيطان الآثم. تفحّ فحيح أفعى يثقب في الأسماع. تتملّكها تملّك السيّد للعبيد. تكاد لا تُصدّق نفسها بأنّها بمثل هذه البراعة.

قالت «رنين» أكثر ممّا تقصد:

«كان آملٍ واهٍ»

حملقت فيها الجدّة، واجمة:

«عن أي شيء تتحدّثين؟»

وطال بها الشرح. «أملي، أنا»

جعلت الجدّة تُنعم النّظر فيها مُسْبِلَةً عينيها:

«ما بكِ؟»

«أشعر بالضيق»

«لا سرائر خفيّة بيننا»

أنهت كلامها المُبطّن مسحورة وساهية عن كلّ شيء حولها:

«المسألة ليس لها أن تُسوَّى»

«كيف؟»

«لم يخب ظنّي بعد»

غَشِيَها النُعاس. غفت تشعر بضيق وعيونها تُحدّق تحديقًا مُفزعًا. هواجسها متضاربة بين الجدّ والدّعابة. خوف يكاد يتشكّل فتبدو لها بهيمة شيطانيّة. كانت «ريماس» تُوجّه سياطًا محمومة. كالحراذين الجامحة. تستعذب تعذيب الآخرين. ففي ذلك تلفى حبورها. التوازن على حدّ شفرة الألم. وذلك ما داومت عليه دونما ندم. وهذا ما جعلها مرجعًا لكلّ الشرور. ولونًا من ألوان الهلوسة.

كان الدُخّان ينسحب من رأسها ويعقد غُيومًا شريّرة تتزاحم. مضت راكدة الأعماق ومُثقلة الخُطا إلى معرفة من

الطّـارق. كان الطفـل يتحدث بنـبرة ضيّقة لأحـد الغُرباء الّذي كان مُلقى كالثُعبان السّارح على الأرض. يمدّ يده شيئًا بعد شيء ليُعلمـه أنّه عمّه المفقود الّذي خرج من خزانة الأسـاطير. فطنت «رنين» إلى ما يدور في خُلد الرجل الغامض بعد أن كانت تُغالط نفسـها. احتقـن وجهها. شـهدت عليه خلـلًا ومُفارقـةً. لا يَنِي يُعابث وجه الصغير الّذي سحبته عبثًا مُغلقة الباب وتتقلّب على صفائح النّار. في خُطوات محمومة أغلقت جميع المنافذ وسـحبت السَواطيرُ تحسبًا لأدنى مكروه.

قالت الجدّة. «ما كُلُّ هذه السّكاكين العريضة والطويلة؟»

أدْنَتْ رأسها من صغيرها وأجابت كالهامس:

«ثمّة من سعى للسّطو عليه»

«من هو؟»

«لا أعرف من هو»

ثـمّ هَفـت طويـلًا إلى لكنـة قلـق وقعـت فيهـا في السّـابق. وأصبحـت سـاكنة. تنبثـق بداخلها دوافـع القتـل. كان الوجل مُكدّسًـا يُكامـل إضطراب مشـاعرها الأخـرى بجُنـون تزايد.

وما كان التّفكير السّليم طوع إرادتها. لا شـيئ يتوضّح أمامها. تعرّض أطفال الرّيف لهذا الاختطاف من البُعبُع و»بو شـكارة». هذا يشـقُّ طريقه شقًّا لتكرار السيناريو الشامل في المدينة. جاس المـاضي مُتهيّئًا لنـزاع عنيف يمضّهـا. فتتحوّل سـاكنة إلى قطعة باردة مـن الرخام. تُكثر من الرجفة والخـوف. أي شيء قالته لها «ريـماس»؟ لابُـدّ لنا أن نرتعب من كل ما هـو غير مرغوبٌ فيه. وأن نُـداوم عـلى الرهبة بين آنٍ وآنٍ، على مرأى وعلى مسـمع من الجميع. مدافع تدوي في رؤوسهم الثلاثة. قنابلٌ تنفجر من أشدّ الأماكن حُلكة واهتزازًا. وفي قبو المنزل تلاحموا ببعضهم البعض بدفقـة البراكـين النّابضـة وشراهـة الإنتظـار المسـحور. وكان الخـوف يتسـلّى في تخويفهـم أشـتاتًا. الحقيقة غول أسـطوري لا تُصـدّق. والخوف يصل إلى الحقيقة. أي حقيقة؟ حقيقة الخوف. وما مبلغه؟ طال بهما المكوث، إلى أن جاء السيّد «وزير» ولاقاهم مُتهـدّج الأنفـس وفي حالة لا تقلّ عـن الإغماء. يقينـه أنّ كلّ ما يخرج من حُنجرته ليس أكثر من كذبٍ على شـخصه. سيأتي يوم يتحدّث فيه بنفس اللغة الّتي تطنُّ في رأسـه. مشـى كأنّه مشدود بحِبـال طويلـة مـن القبـو إلى غُرفته شـابكًا عقدة عنقـه بعنف.

تحيز الشـمس نحـو الأفول. تقدّم بقدمه اليُمنـى واضعًا اليُسرى خلفها تمامًا، كراقص كلاسـيكي، وخلع حـذاءه خطفًا. يعزف الطنـين في رأسـه ألحانًـا. كان له تخيّلًا أنّ نسـاء الكون يسـجدن تحـت قدميه. يأملن تقبيل واحتضان يديـه المُفجّرة عروقها. وأنّه سـيّد المقام الأعظم المُتكبّر. سيّد المدينة والكون. وله كل الأَهْلِيّة والسّـلطة والنُفُـوذ والوِلايَـة ليفعـل بهنّ مـا يشـاء. كلّهنّ تحت مشـيئته وطوعه. السـبع في بواطنه مُنتفضًا وقحًـا ومُهتاجًا. صرّ أسـنانه في محاولة لدرء التفكير المنحرف عن رأسه. هذا التحدّي الأبدي لأهواء النّفس السّـاديّة والمُتحدّية والعطشى، ألا ينتهي؟ انتزع جوربيه. خلع قمصانه. وشلح بنطاله. امتشق ثيابه كقشرة تُفّاح. تحوّل إلى الحمّام وشـحنات الهوس تندلع مع سبق الإصرار والترصّد. المزاج المقلوب على رأسه علّة حياده عن كونه إنسانًا. يتذبذب الشرر من زوبعة لَوْثَته. يستسلم للحُلكة المُمتدّة. ما عاد في مسـتطاعه أن يُسيطر على ذاتيّته باستثناء أن يعصر الّذي تمطّط ويلسـعه كُبندقيّة مُلقّمة في انتظار الرشق الصّاعق. يُصرّح بأكثر هَوْسَـاواته غرابـة. فعلها مخمـورًا مرّة وباسـتحواذه زايد أخرى وثالثة بحماقته ورابعة باسـتهتاره، إلى أن انهار يغمره السأم، ينبذ

نفسه والذنب يعلو قلبه. حتّى دنّس كل شبر من كلّ مكان. كان يحسُّ أنّه اتّسخ إلى ذراه. أشواك الماء تسقط ببساطة وتبتلعه. تتكهرب الأنا السادية والطاغية الّتي تحكمه والعقل المليء بالمطّبات، فلا يُحقّق الجسد أدنى خلاص. قصد النّافذة عاريًّا. أطرافه راعشة. كم من الحُزن مضى. عضّ بين أنيابه عجين هذا العُمر. يعتقد أنّه لا يُفضّل البقاء وحيدًا. ولا يهتمّ بما تكون النتائج أو حتّى الأسباب. نظر إلى أضواء الغروب السّاطعة والدخان المُتصاعد الّذي يضمّ السّماء كمُخلّفات البُندقيّة. في النّاحية المُعاكسة حرقت «ريماس» كُومة من القاذورات. رشّت بخور الشعوذة ليتمكّن أكبر عدد من سكّان المدينة من استنشاقه. تحسبُ أنّ ذلك ضروريًّا لتشتيت أيّامهم.

أطلّ أحد المارّة من شبّاك سيّارته وقال مبحوحًا:

«كمّ أنتِ طيّبة يا جارتي حتّى وأنتِ تحرقين الخُردة ترشّين البخور فنستفيد بالروائح الحُلوة»

تُخرج من أعماقها حقلًا من المُراوغة والخديعة:

تُخفي جماح مخالبها الكبيرة. «يعيْشَكْ، هذا واجبي نحو أهل المدينة»

النـار تزحف مُسـتعرة بوحشـيّة. دخّـان شرّير ناقم يتشـبّث بأنوف النّاس. تشهق المدينة مُعانقة موجة من الدُخّان.

تضاعفت رغباتها المسحورة:

وكتمت ضحكة شـيطانيّة شرّيرة.«تعالَ واستنشق عن كثب أيّها العزيز»

اِنبَلَـقَ البـاب بأصابـع راجفة كما الصاعقة. يسـحبها السـيّد «وزير» بشراسـة السـواد المُخـزّن بداخله. عينـاه محمرّتان. لهب جهنّم يرتجّ وينحدر منه كالسـيل. سـاد اعتقاد مُفجع أنّ الجليز سـينخرم إلى نصفـين ويـزدرمُ ألمهـا ومرارتهـا وسـآمتها. قرَّعها السـيّد «وزير» بـين ذراعيه، يثني عُنقها. لسـانه يلهج بصواريخ الـذمّ، أنّها كانت تُضلّله مع أحـد البحّارة، إلاَّ أنّها كانت تتضرّع إليه أن يترك يده تنزلق من رقبتها.

تُفتّـش الجدّة عن إحداث المتاعب وكانـت عيناها تُؤلمان مثل لسانها.«تلاويح»

«أمّي لا تتدخّلي»

تنفـرط «رنين» الذابلـة. محمومة تجترّ كآبتهـا. كان فيها ذلك

الوهـن الخفـيّ. ترتطم بطـرف المنضدة في حـين تحدجهما بنظرة زاحفـة. لا تَنِي عن الإدلال أنّه كان محض بحّار غريب بادلها قلّة مـن الدردشـات. في حركة خاطفة تصدح الصُور من يد السـيّد «وزيـر». تنظرهمـا «رنـين» وكانت مُجـرّد صور لهـا تُشـافِهُ فيها البحّار. تطفو أسـئلة بكاء في رأسـها حول هويّة من كان يُراقبها ويلتقط الصُور لها.

وأقرّت بما كانت قادرة عليه–وهي تنفجر باكيّة–تُبحلق فيه:

«من أين لكَ بهذه الصُور المُضحكة؟»

«أتقرّين بالحقيقة الآن؟»

فكرّرت صرختها الجُنونيّة وكانت نواياها حمقاء مُتصدّعة:

«الحقيقة أنّني لا أستطيع أن أتحاور معكَ أبدًا»

«ما بقي فيكِ حقيقة لتُخفينها»

أعقبـت الجـدّة بصوتها المـشروخ بفعـل التّبـغ.«لا طائل من ورائكِ ولا فائدة منكِ»

نظـرت داخـل المصبـاح الزّيتـي المُعلّـق بالجدار الواشـك أن يخمد، وردّت بنبرة ترتعد هلعًا:

صفير مُرعب يسبح في الفضاء فيما الضّيق الشّديد يكبس خناقها. «لا تكوني مُتحيّزة تُجاه ابنكِ»

«أمّي لا تحشري أنفكِ»

«يُمكن لأي شخص التقاط صُور لأي شخص يتحدّث إلى أي شخص»

قاطعتها الجدّة. «ما هذه العبارة المُرعبة؟»

يتلكّأ السيّد "وزير" في اللّفظ وخداه مُنتفختان:

«عينيّ لن تنام عنكِ»

تعزل أنفاسها، ويقلّ نبضها، فندّت منها بحّة مرُيعة، رنّت في أركان البيت:

«لا تنم إذًا»

«ألستِ على دراية بأنّني أستبق الخُطوة اللاّحقة وأتنبّأ بالمجهول؟»

تمنَّت «رنيُن» وقتئذٍ-بصوت متحشرج مرير-أن تبتلعها حُفرة ناشفة ذلك أنّها لا تُحبّذ الرُطوبة. طقطقة خفيضة

استحالت إلى قعقعة. بمُجرّد أن أضحت الحياة تجرشها بقدمها الضخمة، صارت شائعة على الانحسار والالتفاف في حوض الاستحمام، مع البكاء المحموم، حتّى بُزوغ الفجر. تنتفخ مثل العرائس القُطنيّة. بزغت الشّمس دامية مُكتنزة وإسترعت انتباهها. قَدَّرَت أنّها في خطرٍ داهم.

(10)

بمـلء مـا لـه مـن فُضـول قرأ «طـلال» مـا كُتـب عـلى لُعبة جومانجي، هاته اللعبة مُخصّصـة لأولئك الّذين يُريدون مُغادرة عالمهم. تمنـح جومانجي اللاعب مفتاحًا لفـكّ الأحجية. امتنع «مرتقب» عن الخوض فيها بتلك الرغبة المُرعبة القابعة فيه.

«يا للعجب»

«أشعرُ بالجُوع»

«توقّف عن الثرثرة وتابع اللعب»

«المُباراة صارت حارّة أريد أكلها»

«لن تكون لعبتنا طعامك القادم»

«أنا فخورٌ ببطني»

«إنّها لا تُعجبني»

«اخرس»

«اخرس أنتْ»

«سئمتُ من الإخفاق»

«يا للعجب»

«أشعر أنّ أحدهم سيموت»

«المُهم ليس نحن»

أيديهم تحوي جهازيّ تحكّم نيتندو متى انطفأت لمبة النّيون الّتي يحـوم الذباب حولها. يُعانق «طـلال» «مُرتقب» في عتمة الخوف المُحترقة. كل ما في المكان يجمع بين الأحاسيس الرّاجفة. بسُأمه، بهلعـه، باهتزاز طفل إِمْتَـدَّ به الترصّد ولم يعرف شـعور الأمان. يلتصـق جامدًا بـ»مرتقب» الّذي فيه بـرودة جُثّة. طفولة صاقعة كالموت تعلو من خروم الصّمت. أحسّ أنّ خطرًا سـيداهمه عن قريب. أخطر حتّى من قريبـه المُباغت. أُغلق باب الغُرفة ضاجًّا كصرخـات الريح. ومع الظلام بدأت الغرفة تغرق في الضباب. وبـدأ شيء يُشـبه الحِصـار يتعزّز بمخـاوف تتجـلّى. الهلع يثقب شيء ما. يرغب في التحرّر. في قول شيء ما يُماثل الموت. الطفولة تنبـش عن شيء ما. يُشـبه الأمـان والهرب والمـوت. ينبعث أنينٌ يتهكّم من كائن في قِعر الظلام. يتنفّس ببطء وتشنّج.

يهمس «طلال» بالّتي هي أخفض:

«من هُناك؟»

لا أحد يُجيب سوى الأنفاس اللاهثة.

بتلك القُدرة على البُكاء والإرتجاف يُكرّر:

«من هُناك؟»

لا أحد يُجيب سوى الأنفاس اللاهثة.

بذلك التشنّج المغزوّ الباعث على الموت يُكرّر:

«شغّل الأضواء»

«مُرتقب» يخرسُ ولا يُجيب. ينكمش فزعًا. تموت فيه كل مُبادرة تدعو للتحدّث، لإنارة الأضواء، وللخلاص. انفجرت ضحكة شرّيرة كالتّي يُطلقها خاطفي الأطفال. يثب شيء كريه على «طلال» يصيح شراسة ومقت. وفي العتمة يتكهرب «مرتقب» إلى ركن الغرفة. لا يتحرّك. لا يتكلّم. يهتزّ «طلال» بين صفعات الظلمة. يتَناءى عبثًا عن الشيء الّذي يُلاحقه. يُفتّش عن ذلك الأمان الكاذب. لكنّ شرًّا عظيمًا يُلاحقه كالطّاعون. يسحبه من معطفه. عينان من الظلام ساطعتان. يقعُ كالمقصلة على لُعبة جومانجي. يُمسك حجرا الزهر ويسقط بهما على اللوح بالضوضاء الّتي في أعماقه. بسؤمه وخوفه وهلعه تجسّمت قُوّة سطع منها ضوء يتوهّج كزوبعة راعدة. تشكّلت

كتابة كالديدان البارقة من قلب العتمة. سنُعيده إليكم عندما يُصبح عالمكم أقلّ خُطورة من عالمنا. فيُبتلع إلى جوف اللعبة على شكل دوّامة تسحبه إليها. «مرتقب» في الركن المُظلم تربو أنفاسه اللاهثة كهلاك وشيك يشدُّ أعصابه. يفزُّ رعدة صاخبة، برطوبة الضباب ودسامة الظلام. يدور فاقد البصر عبر جُدران الغُرفة. يبحث عن الباب المخفي. الشيء القبيح يُمسكه. يُلصقه بالحائط. يعبث به. صرير سروال ينفتح بعدائيّة مكتومة. يخرج منه شيء مُدنّس. يركله «مرتقب» بذلك الخوف القابع في قيعان ذاتيّته. ويصرخ مُشوّهًا بحثًا عن الباب. يدور مُخَرَّقًا من لا جدار إلى لا جدار. أين الباب؟ يغمره المقت لهذا العالم. يدور كمجنون يغرق في قهره.

«دعني وشأني»

«أنا كابوسك، كيف لي أن أدعك»

وصقيع صاعق كالسّهم ينغرس بين قدميه. يُعرّيه من مُقاومته. يعِده بالخوف ومواسمه. وشيء يُشبه البول يعبق من سرواله. يحشو نفسه في الظلام أكثر فأكثر. يهوي في بركة مُتحرّكة. يسقط عليه كائن السحليّة بثقل جسمه. بحُبُور

زواحف مُهتاجة. سـوط لزج يُشـبه الجِراح والتقرّحات ينضح. لعلّـه المذي وسـيعقبه بعد بُرهـاتٍ المني. يقصف الـبراءة. يقتل الطّفـل الّـذي كان في نفسـه. العبـث في الخارج يُريـد الدخول. ترتعـش أطـراف «مرتقـب» نَشَـدًا عن نَجَـاة. يُطلـق صيحات تثقـب جُدران الظلام السّـميكة. يتهجّى كلمة أنجدوني. ينفرط بصعوبة الحياة والبقاء فيها والخلاص منها. يُسـقط جسـمًا صلبًا عـلى رأس الكائن المُترصّد. ألم يُقاطع الاسـتيلاء. ينفرط من بين تملّكـه. ولا يدري كيف فعلهـا. يهتزّ في الزقاق المُعتم. يجد الباب بمشقّة العبد المقتول. يتنشر النُور كالإِنْقاذ المعبود. يتحوّل رأسه ذليـلًا إلى معرفة الكائن الموبوء. يرفع عنه القناع بأنظاره النّازفة. كان عمّ «طلال». يتلوّى ويغرق في دوخته الدّائمة.

(11)

سُـجن زوج «ريـماس» وحقـد قـانٍ يندلـع من عينيـه. ولأنّه يُعدّ جزءًا من النّظام السّـياسي الحاكـم، خُفّفت عُقوبته إلى أربع سـنوات. ارتاح الكُلّ من بئس أفعاله ولم يبق إلّا ولع وحقارات زوجته المُتلوّنـة. لم يعثروا على «طلال». أو شيء لتوجيههم إليه. لم يسـكف «مرتقب» عـن قول إنّه قـد انزلق كالرمـال المُتحرّكة إلى لُعبـة جومانجـي. سـادهم اعتقـاد أنّ الخيـال يُخفّف خطورة وشـدّة المأسـاة. على الرغم من أنّ الخيال يُوازي الواقع في ثكله. ولشـدّ ما يكـون الواقع مأسـاة اختفى «طـلال» في لُعبة. الخوف ما يُجسّـم واقعيّـة المخـاوف. اتّهم «مرتقـب» بالخيـال، حتّى إذا كان لديـه شـاهد أو شـهود يُتّهـم بجريـرة أنّه شـخص مُتخيّل لا ينـي عن ترهيـب الآخر. ولم يكـن مُتخيّلًا بقدر مـا كان يُدلي بأشـياء واقعيّة بدت لمنطق الكبار أنّها لونًا من الخيال لهذا الشيء أبقـت «رنـين» الطّفل بداخلهـا لتُصدّق أي طفل يقول لها شـيئًا يبدو لمنطـق الكبار أنّه خيال. تعرف ضمنيًّا أنّ الأطفال وحدهم لا يُخادعـون باسـتثناء قلّة منهم ولدوا بجينـات خبيثة ومُضلّلة.

يُقـاسي «مرتقب» من عُطل في الدماغ. فقد اِنضمّ بعاطفته داخل مُحيطه بشراهة. قلّ إهتمامه بنفسه ويُمزّق نفسه على وتيرة واحدة. هجر أنشـطته الدراسيّة، وهو يعجز عن فهمها بحُرقة. غير قادر على تتمّـة أي حوار يبدؤه. يعرف بقناعة تامّة أنّ كثافة الاختناق تربو ويشردُ كلّما ذاكر. صيحات مسعورة يُوقظها ذلك أنّ غُرفته تعـجّ بالعناكـب وأنيابهـا. لا يرتضى أن يضع يديـه على مقابض الأبـواب. لا نهايـة لرفضـه أن يقعد على كُرسي قعـد عليه غيره. يُغرسُ في شُـعور مُرعب بالتلوّث والحاجة المُلّحة للاستحمام. لا شيئ سوى أنّه يتلافى الاختلاط بلا بُرهان. ويتعثّر بلا دليل أثناء سيْره. ويُصدر صريرًا لزجًا كصرير أبواب الرعب الّتي تُحاول أن تنفتح عبثًا وشراسة على مصراعيها. ناهيك عن العصبيّة والعناد الملسـوع الّذي يسود العالم، له التعبير عن حُزنه المُنهك بكسر أي شيء أمامه، كغضبه، كحقده، وكتيهه، أليكتشف ذاتيّته؟ بيْدَ أنّ الكُلّ بدؤوا يُعاملونه بدلال بعد فترة الحِداد تلك.

قالـت الجـدّة وصوتها آخـذ في الانخفـاض كرمـال تقصف الرياح كُثبانها. «هذا سُخف. ابنكما يُجنّ»

أخـذه السـيد «وزيـر» إلى طبيبه النفـسي الّذي بـتّ في حالته

وأثبـت أنّ اضطـراب الوسـواس القهـري وعـدّة اضطرابـات نفسـيّة قد يطول أمدها في وقتٍ لاحق، بما في ذلك الذُهان. لابدّ أن يُقابلـوا ردود فعله بهدوء. صرف لـه مُضادّات الاكتئاب من الجيل الأوّل بجُرعة مُنخفضة.

اِنتهـى السـيّد «وزيـر» إلى التسـاؤل باصطـكاك صوتـه المدفون. «هل سيكبر ويكون شخصًا سويًّا؟»

لا يُبدي الطبيب دهشته. «لا أعرف، ثمّة إحتمالات نسبيّة»

«أي شيء عن مدّة أخذ الدواء؟»

«سيأخذها أطول فترة مُمكنة إلى أن يتحسّن»

«وإذا لم يتحسّن قريبًا؟»

«سأستمرّ في إعطائها له»

مـن المألوف أن يحصل الابـن على جُنون والـده. وليس لدى الوالد ما هو أسوأ من ذلك ليُعطيه إيّاه.

ينقبـض الأسـى الآسر أسـهمًا ضاريـه تُثبّتـه عـلى جُـدران الصّمـت المُرتـاع والأبدي. أصبح هامدًا أكثر ممّـا كان عليه قبل

استخدام الـدواء. تنفجر اللامبالاة في حد ذاتهـا ناقمة مثل بحر شاسـع لا نهايـة لامتـداده، لعُمقه، ولصمتـه. تسـتيقظ الدموع مـن مآقيـه. توقّفـت «رنين» عـن اعطائـه مُضـادّات الاكتئاب. لا يتكلّـم. أنجبـت فتى صامتا. أخذ ينزف شـلّالًا مـن التوقّف المُفاجـئ للـدواء. هُنالك المـوت، دقّات الموت، هـزّات الموت، دوام المـوت. لن يسـتمرّ في الحيـاة أكثر من يوم واحـد. اتّصلت بالطّبيب وشـعرت بقطـرات اللعاب مُتناثرة مـن ثقوب الهاتف تنقل لها أنّ تصرّفها غير مسـؤول والتوقّف فجأة يُسـبّب النّزيف والوفاة. لابُدّ أن تُرجعه إلى هذا الدواء اللعين وتُقلّل من جرعته إلى أن يتوقّف عن تناوله. ويبدو أنّ «رنين» عازمة على اصطحابه للعيش في الريف. لن تتركه في ترقّب المُترصّد المُخيف.

قالت الجدّة مُتعضة«إلى أين ستأخذينه؟»

«إلى بلدتي، الوضع ليس آمنًا هنا»

«هل تناقشتِ مع زوجكِ؟»

«كلّا، الطّفل يضيع، لن أقف مكتوفة الأيدي»

«أ أنتِ مُتأكدّة ممّا تفعلينه؟»

«بكلّ تأكيد»

إلى السـيّارة يصعـد وتنطلـق به نحـو طريق بعيـد. كما تحمل الريح سحابة ضائعة من سماء إلى سماء. ثمّة ذلك الخوف الدفين يركـض من طريق إلى طريق يخُبرها بمُوجِب ارجاعه. ضياعه في المدينة أبدًا. تتجاهل الخوف بهمجيّة وبلاهة. تضغط على دوّاسة السـيّارة برقًا. يلتصق الخوف ببلور السـيارة كالأصباغ. يصرخ بخـوف حقيقي أيـن المفرّ؟ أيـن النّجاة. تـضرب الريح الخوف فيسـقط على الطريق السريع. تتقاذفه السيّارات. يموت ويكبر. يسـعى ركضًـا إلى المدينـة. أوقفـت «رنـين» السـيّارة أمـام بيت العائلة. كما لو أنّها ترى الريف للمرّة الأولى.

قالت أمّها عبوسة. «كمّ سيبقى؟»

«لشهر واحد»

«ودراسته؟»

«سيدرس بالبيت»

«ماذا لو خرج دون درايتي؟»

«احرصي على مُراقبته»

«والمُترصّدون؟»

«لا يُوجد شيء من هذا القبيل في الريف»

«أ جُننتِ؟»

«الّذين تهذين عنهم موجودون فقط في البشر»

«عن أي شيء تتحدّثين؟»

«البعبع وبو شكارة وعيشة قنديشة وغيرهم، هم بشر ينتمون للحزب الحاكم»

«أنتِ حقًّا قد جُننتِ»

«جعلونـا نُصدّق هذه الأكاذيـب حتّى يُداهـم عُمدة الريف المارد ويُخاتل في حُكمه»

«تكلّمي بواقعيّة»

«كل هذه الألاعيب سياسيّة»

«أنتِ لا تتنبّئين إلّا بالمكروه»

«لأي شيء لم نرهم من قبل؟»

«لماذا عليكِ أن تقولي السّخافات دائمًا»

«ولأي شيء يبثّون خبر اختفاء الأطفال والرجال دون أن يفوت أحد منّا؟»

«أنتِ حقًّا قد جُننتِ»

«أنا مجنونة لأنّني عرفت الحقيقة، وحدهم المجانين يعرفون الحقيقة»

«هل تُشاهدين أفلامًا مُغفّلة؟»

«إنّنا نعيش في قفص الأوهام»

لأنّ كلّ من يقول الحقيقة يُتّهم بالجُنون خرجت. شعرت أنّها تُحاور الجدّة مكان أمّها. وقبل أن تلحق بالسيّارة مهدودة، رأت رجلاً يطرق على بابا المنزل الجديد المُجاور لها، عنوة. في خطوه عرج. بفضول مُلتاع يشدّها إلى التقصّي اقتربت تزحف كعمود جافّ في عُمق الصحراء. فُتِح الباب وكانت فتاة. كان بمُستطاعها أن تُدلي: «تقبّل أسفي. نساء القرية لا يتحدّثن إلى الغُرباء» فردّ الرجل الغريب ليقول مُستعطفًا بلهفة سلّال القُلوب «سيّارتي تعطّلت» كان الرجل يختصّها من بنات الريف لأنّها حمقاء. اندلعت قهقهات مُطارد يصطاد أرنبًا. خبرت هذا الحوار المُرعب في مثل هذا اليوم منذ تلك السّنة. هل جُنّت حقًّا

كما قالت لها أمّها؟ تردّد وحشي بنفجر من أعماقها. كأنّ الماضي المُكهرب يسعى ليُعاد بلا زمن في زمنٍ آخر. وتظلّ محافظة على صمتها. يُمزّق شُعاع الحاضر أعصابها نتفًا. ألعنة تُلاحق نساء الريف؟ ليس لها أن تُزيح السّتار لتتكشّف عن ضبابة الواقع أكثر. لن تغوص في الحقيقة أعمق. ورُبّما تكون قد جُنّت وأمّها مُحقّة. وقبل أن تصل إلى نهاية الريف خرج لها بو شكارة يصيح كفزّاعة تتوهّج حقدًا. يُشدّد حِصاره عليها. يتحرّق إلى أكلها أو حتّى زجّها في كيسه كسمكة ستعتاد شبكتها. ترجّلت من سيّارتها ونزعت عنه رداءه الكُحلي فكان حارس المُعتمديّة. مُتّجهًا راكضًا إلى الجهة المُعاكسة صارخًا بلوعة كُشفْنَا.

«أين أمّي لترى أنّي لستُ موهومة»

كانت على دراية بكلّ هذا. الفتاة الّتي تربت على الرصد. تعرف الرصد سلفًا. كانت تعرف ضمنًا أنّ حياة الأشرار سهلة. لاقت الجدّة وقد كان الجوع يطوي بطنها.

«لأي شيئ أبطأتِ في المجيء، تلك السيّدة لا تكفّ عن مُهاتفتكِ»

ما أثار دهشتها أنّ هذه السيّدة-الّتي لا تعرف أنّها كانت صديقتها «ريماس» من الريف-على دراية بما يحصلُ لها. كقوّة شيطانيّة مُتربّصة برأسها. تترصّدها عن كثب. تترصّد كل أمور حياته. تعرف عليها-بشكل حاسم-كل كلمة تقولها. تمكّنت من التسرّب إلى كامل حياتها. في تماثلها بـ«عيشة قنديشة». بل أخبث كائن جاء إلى الحياة.

لقد حلّ الصّقيع مُجدّدًا. في ذلك الشهر، شهدت المدينة موجة ثلج لم تشهدها منُذ عدّة قُرون. يسقطُ الثلج مثل بَتلاتِ الزهور البيضاء. لم يتمالك السيّد «وزير» الرعشة الّتي تناثرت في مُعظم أجزاء جسده. أشبه بسواطير تُقطّع. مُنذُ متى فقد رغبته في هذا الفعل؟ كلّما حضرته هذه الفكرة، فكرة الهوس، ينفجر شيء في جوفه مثل زوبعة زمنيّة هائجة. في هذا الطقس البارد وبعد فراغه من العمل لاقى فتاة ليل على مرمى البصر ليغتذي بها. عاودته ديمومة روحاته وغدواته. لا تنضب عزيمته بسُهولة. كأنّ شيئًا ما نال من قدرته على الإدراك. فعل ما كان عازمًا على فعله. عند الفزع والهياج كان مُكرَهًا على ليِّ رقبتها في تماثله بمواصفات هتلر. تركت له عينان بهلوانيتان. ولا يحدث له أن يشعر

بالاستياء. إنّ مثل هذا القتل لا يُلغي قتلًا آخر. في غابة كثيفة الأشجار أقدامه تمتدّ نزولًا حاملًا مجرفة وجُثّة. يتدحرج على المسحوق الأبيض كما لو أنّه يطير فوق بساط سحري. لا يخلو الهواء من رذاذ الرطوبة. حدث ما لم يكن في حُسبانه. القبر الّذي بدأ في حفره دُفن فيه جثّة مُسبقًا. خرجت منه صراصير. وجد «طلال» ميّتًا. جسده مُتراخٍ في حالة سفاد. ذاب السيّد «وزير» خوفًا. والصرخة الّتي انبعثت منه، على رُغمه. ذرف دموعًا حارّة. كان لهذا الحادث وقعٌ في نفسه. أفكاره مُعقّدة في هذه الأوقات. وطال علي وطأته. أرجع جثّة فتاة الليل إلى سيّارته. بذل جهدًا وهو يُفكّر. وساءل نفسه ماذا هو فاعل؟ فكّر جيّدًا في هذا الأمر. ذهب إلى مدينة أخرى. من خلال التاكسيفون خبّر مركز الشرطة بجثّة «طلال». أثبت التشريح أنّ لعمّه يد في ذلك.

(12)

حلّ الربيع على نحوٍ مُباغت. للشمس الحارقة انحيازاً باهتاً. دأبت على أن تُصعّد من صوت التلفاز متى كانت على الهاتف. أو أن تلجأ إلى وضعه في كيس كبير ودفنه في الحديقة إلى أن يحين آوان رحيل الزُوار. تُغلق رتاج الأبواب دورتين. مع ذلك، اقتحموا منزلهم أثناء غيابهم عنه. تركوا القاع فوق القمّة. دأبوا-ككلّ مرّة-على التبوّل في خلف الباب المكسور. فضلًا عن أثر أقدام طينيّة. كان هُناك دائمًا سُؤال في ذهنها-ما الّذي يسعون إليه على وجه الخصوص؟ في مُستقبل الأيّام. شلّها الرعب. رُعب أشبه بالجحيم. شَلّحوا جواز سفر السيّد «وزير». تلقّى برقيّة من مفوّضيّة الشرطة. من أرسل بهم إليه؟ كانت «ريماس» تراقب عن كثب وترتدي كنزة صوف زرقاء وتحتها بنطلون جينز، تزمّ لفافة تبغ. يصل بها الحقد أقصاه. وفي مركز الشرطة عمّ السُكون. أنكر أي مسؤوليّة. لفّ ساقًا على ساق. أطلق أحد خفراء المدينة سلسلة من الشتائم. مرّر يده على حزام بنطاله «لا تُهرّج. أنت مُذنب» لديه ميْل مُعقّد لإساءة استخدام

منصبـه لقضـاء حاجاته. كما في طبع البـشر. أن يُغالي في الضرب والإهانـة لعـلّ شـعوره بالسّـعادة يعلوه. قـام اللعـين بتضخيم اضبارتـه. ثـمّ تكوّنت لدى السيّد «وزيـر» قناعة تامّة بـأنّ أمرهُ قد قُـضِيَ. أحسّ بالحُمق. كل الأشـياء تنزلق مـن قبضته. بضعُ موجات مُرتعشة تُصيب رأسه. كان غباءً منه أن يدفنها في الغابة. لـو علموا بالجثث في القبو والتحنيـط، لحكموا عليه بالإعدام أو بمستشـفى للأمـراض العقلية. لقد ضـاع كل شيء. أودع به إلى السّـجن لمدّة ثلاثين عامًا. في سـنّ السادسـة والسـبعين سـيُفرج عنه. لا يُحسـدُ على مصـيره. اِنتشر الخبر في أثنـاء ذلك مثل جبل من نار. هدمه السّـجن وغيّر من ملامحه، بدا أَنْمَى نقمة وأَوسَـعَ لعنة. يحبس في ذاتيّته شـيئًا غريبًـا للغاية. يحسّ يحسّ بالرّاحة من الظـلام الّذي يكتنفه. يكاد يفقد عقله من الرطوبة. لاقته «رنين» بالإحجام والإباء. أراد أن يعانقها تلطّفًا بها، فوقفت مُبعدة تعجّ بالعواصف. مُعوّجة رأسـها. تنظر حائرة. وعبسـت في تكلّف. لم يعـد مجيئهـا منتضمًا. رائحـة الغُرفة نتنـة ومُقرفة وجـرداء من الإنسـانيّة. كان لها تصوّرًا للأوكار الّتي يتقاسـمها مع ثلّة كبيرة من السّـجناء. إلى غـير ذلك من موت يتجسّـد قُبالتها بين الحين

والآخر. يقـول مبهوتًا بلكنة دخيلة يزيـدُ حُزنًا إلى حُزنها «ليس لي شـأن بذلـك» تلتقـي أعينهم قليـلًا من الوقـت وتقولها وقتها بمـرارة: «الجريمة ثابتة، لقد دفعت قسـطًا مـن الضَّريبة، أتدرك حجم الخسـائر التي أحاقتني؟» يقاطعها بصوت مر خانق يحمل التعاسـة: «مـا كان يتعيّن أن تأتي» طفقـت تُفتّش في مكنونها عن أشـياء تُؤويهـا لكنّها لا تجـد من جواب. تعـرف حجم الهفوات الفادحـة التـي اقترفتها وكلّها تأتي على شـاكلة واحـدة. صمتها المفـروض في أوقـات رفضهـا السـري. يجـدر بها تسـويّة غيض مـن فيض. وتعـرف ضمنيًّا كمّ هي مُتَقَاعِسـة. اسـتحال صوته يتلهّـب-في لحظـة مُباغتة-إلى أنين وانهار عليهـا، يُعانقها مُحاولًا إسـترضاءها. مُكتئب جدّا على فعل أي شيء. يُغالب على ما فيه من تداعي أسـبلت جفنيهـا خاضعة. ناطقة بـالألم. انفطر قلبها إضطـرارًا. كانـت الأرض تميد مـن تحتها مُتمهّلـة والأصوات السّـائلة تتمـزّق. تَدَّفَـق لغـط السّـجّان يُشـدّد الرقابـة عليهـا: «زيارة السّجين انتهت» الأسوأ كان أن ينظر إليها السجّان نظرة اسـتهجان. يتصايح السّـجان ثانية بصوته الرنّان والمُصْلتِ على رقابهـا: «ألم تسـمعا؟» أردف السـيّد «وزيـر» والغصص تقطع

صوته: «سامحيني على كل ما بدر منّي» ما قاله لن يجعلها تُحسنُ في شيء. في قادم الأيّام اقتحموا المنزل بحُضورهم. تنبّهت من غفوتها على الضوء السّاطع في الممشى المُفضي إلى الغرف. يترامى إلى مسامعها-من وقتٍ إلى آخر-اصطكاك الكراسي والأواني. أكلوا وشربوا وتمطّطوا على الكنبة كالقطط. كانوا يُطلقون اللعنات ويتكلّمون بأقصى صوتهم. تشمئزّ منهم علنًا. لابُدّ لهم أن يتصرّفوا معهم كالأشباح. يرددون في بواطنهم ليس هناك أحد. لا حاجة لهم ليُزعجوا أنفسهم ومن المحبذ أن يتناسوا وجودهم بالبيت. التخاطب ينحصر بالإيماءات والتلميحات. مُشاهدة جلوسهم هذا خادعٌ. كائنات من أعصاب فولاذيّة. تتماسك الجدّة كي تُبرهن أنّها أقوى من كلّ هذا. تسعى «رنين» لخداع نفسها بأن توهم نفسها أنّ لا أحد هنا. لا تحسُّ داخل المنزل أنّها في منزلها. ما يفعلونه جُنون. خالص الشعور من أنّها مُتعقّبة ومرصودة جعلها تنغلقُ على ذاتيّتها. كانت فكرة الترصّد هي الّتي تُؤرّقها. أما زالوا هُناك؟ لا يفارقها التوتر كذلك. وصل بها التفكير إلى ما هو أبعد من ذلك. وإحقاقًا للحق لم تكن تُخمّن في شيء. يستحيل على أيّ منهم أن يعترض على إهانتهم. كان

يجبُ أن يُستجابوا للقذف بأذرع مفتوحة. مُجدًّدا كانت هناك في المطبخ، جلست على الطاولة، ساهيةٌ عن كلّ شيء، فإذ به يُخرج رأسه من مفرش المائدة، يحشر أنفه في أمورها ويقول: «هل تعرفين؟ ينبغي للجميع أن يعرف» ثُبِتَ لها ما شاهدت. ولكن هذا كل ما كان يُجيده التلصّص. لا تلبث أن تنتابها الدهشة ما إن يقترب منها ويترك تهديدًا بين أذنيها. صرخت مُنتفضة في مُواجهة ذلك الشيء الّذي ألقى بنفسه عليها. مُحاولًا الاعتداء عليها. كانت لا تُطلق أناملها إلّا و تُخطئ مكان الساطور. يتكلّم بلا تحفّظ ويُطلق سفاهات لا يتخيّلها أي تصوّر بشري. ينظر إليها على أنّها أشياء تُأكل وتُشتهى. ترفع السكين في وجهه قائلة أنّها ستقتله وتقتل نفسها. لما لا يروقه أحد غيرها. لا تستطيع مُداراة دموعها. سقطت الجدّة بمطرقة على رأسه وغمره الإغماء.

أمسكتا بالشمعدان وكان نوره يتراقص رقيقًا مثل الهنود الحمر. إلى القبو أقدامهم تمتدّ نزولًا كأنّ مغناطيسا يشدّهما إلى البدايات الّتي فيها النّهايات. أشعلت الجدّة لفافة تبغ. سكبت عليه «رنين» زُجاجة ماء حتّى استيقظ. يمسح المُقيّد-الّذي كان رأسه ذو شكلٍ كروي ويميل إلى السُمرة-بطرف قميصه

أنفه الماخـط. تلك النّظرات المُنبعثة بمثابة عـدوان إليها. ترك في داخلها إحساسا بالتقزّز. وأيقظ الوحش الحاقد من لجّة أعماقها. وجّهت له بالعصا لكمات.

قالت الجدّة مُشدّدة. «لا تدعيه يحظى بما يُريد، اكتمي غضبكِ»

قالت «رنين» غير مُسيطرة على نفسها. «أي شيء تشاءه منّا؟»

ردّ ساخرًا. «المتعة، أ تُمانعين؟»

لا تلبـث الجـدة أن تنتابهـا الدهشـة وتغـوص لفافـة التبغ في كتفه. «خُذ هذا»

هذا الألم جعله لا يتجشّم كلمة.

ضربته مُجدّدًا. «تكلّم»

وكل ذلك لم يجعله يتجشـأ بكلمـة، إلّا أنّها هدّدته بقطع جزء من جسده.

أردفت مُتهكّمة. «تعرف أي جزء أقصد»

استزادت:

«أقصد اللسان أيّها المُنحرف»

سحبت الجدة فأساً من كومة الأنقاض في القبو. تسود الطّراوة في الجو. لم يستطع أن يتمالك الرجفة. يسعى إلى التوكيد على أنّ العالم الّذين يشتركون فيه هو عالمهم.

تتشكّل «رنين» في دوّامة مائجة:

«من أنت؟»

«مُحب الترصّد»

«أنا لا أفهمك»

«ما الفهم الّذي ترغبين به؟»

«ترصد من؟»

«أرصدكم أنتم؟»

«وما الهدف من هذا الصنيع؟»

«إنّها أوامر»

«أوامر من؟»

«من فوق؟»

تتعامل بقدرٍ من المُغالاة. «أعرف أنّها من فوق»

بصق في وجهها ولم يبدُ على سحنتها أي مسحة تشي بالاستياء.

ركلته الجدّة وكانت ذات عزيمة شيطانيّة. «تكلّم أيّها الحيوان الشاحب»

«رفقتكِ ممتعة يا جدّتي»

ولن يقم بـردّة فعل إلّا إذا اقتضت الضرورة القصوى. كيف يُمكن أن يكون فيه هذا القدر من الخديعة. صمت ولم يبد جوابًا إلّا حـين رفسـت «رنـين» أحشـاءه بطرف حذائها. شـخص لا تربطهـا به أي صلـة معرفة يقتحم بيتها ويـأكل وينام وعليها أن تتصرّف على سـجيّتها. هذا يُسـمّى انتهاك حُرمة مسكن. يصدرُ عنـه قعقعـة خفيضة. يرمقهـا بوقاحة. يتحاشـى الحديث الدائر بينهم.

يُجرى النّقاش في جو من الخُشونة والفوضى:

«ألا يدفع هذا الفعل أي عاقل إلى دوّامة الجُنون؟»

وذيّلت كلامها بعبارات تعسّفيّة:

«وحده الترصّد تعرفه؟»

«أنا مثلكِ لا أعرف شيئًا»

«ما أبقيتموه لنا لنعيش لأجله؟»

«تتدّعين عدم الخوف بينما أعماقكِ ترتجف من الخوف يا جدّتي البائسة»

لكزته الجدّة بلفافة تبغ أخرى. إذا كان ثمّة شيء ينبغي عليه أن يقوله ليقوله الآن. انصرمت برهاتٌ طويلة قبل أن يقول ما يُفكّر به. ثمّة قاعدة وحيدة تُؤلّف بينهم ألا وهي التكتّم. جحظت عيناه مثل طائر انفجر مُحلّقًا من خزانة حيثُ يُوجد عالم آخر. ما الّذي يُريدونه على وجه الخُصوص؟ أي شيء يبتغونه؟ هو أيضًا لا يدري. مُجرّد دُمية يُحرّك من الأعلى. يقولون له راقب فيُراقب. اقتحم فيَقتحم. عنّف فيُعنّف. إنّه واحد من مئات الآلاف من هذا النّظام. رجاله مُختارون منذ ولادتهم. الترصّد، شيء يجري في دمه. وُلد ليقوم ببعض الأعمال غير السارّة. نقل لها أنّنا نُشاهد بعضنا البعض عندما تكون الأمور خاطئة. لكنّهم في هذه الحالة يُراقبونهم لأنّهم يفعلون أشياء خاطئة ويخافون من الوقوع في المصيدة. لا يجبُ أن تُسمّي الأشياء بأسمائها. صدى الصّوت–بالكاد–يرتقي إليهم. يخفون أجهزة تنصّت–نطاق اشتغالها واسع–حتّى في معاطفهم وبيوتهم وسيّاراتهم.

«أي أمور خاطئة ترتكبونها؟»

هُناك مُنازعَة صريحة. «المَتعة؟»

حريصة الجدّة على تجنّب إثارة أي أَدِيد. «تكلّم أيّها الحقير»

وقد بدا في مظهر أحمق. «أيّتها العجوز الكريهة كفاكِ حرقًا لي»

هزّت يدها لكتم الأمر. «ولكن إلى أين نحن ماضون؟»

المَتعة الّتي يتحدّث عنها تكمن في بثّ الخوف والسّلب والمُراقبة والقمع والعنف والجنس وابقاء المرض وإدامة الألم. يُخادعون ويرتدون الأقنعة. ينتحلون شخصيّات من أجل الدخول بين عامّة النّاس من خلال نيل شفقتهم. لا يُمانعون في نَشل الحُقوق ويفعلون بهم ما يشاؤون. لا أحد من العامّة قدّم جوابا. يُمكن لأي شخص أن يُجري أشياء كهاته طالما أنّه على مقربة من السلطة. التَجْوِيز والتَسْويغ بنشوء وتواتر ذلك يُعدّ مَتعة مكرّمة. إنّهم في غالبيّتهم العُظمى يضعون أصابعهم المُتّسخة في أغراض النّاس. أطنب في كلامه أنّ هذا هو كل ما يعرفه وما في مستطاعه التصريح به. باستثناء أنّ زوجها كان له يد في هذا النّظام.

كانت تتكلّم عن نفسها بعبارات فيها حدّة. «وما شأن ابني في هذه الوقاحة؟»

أطالت الجدّة في ضربه حتّى سقط مشبك شعرها عليه دون أن تعرف ذلك.

كان فُندقه مجمعًا لرجال سلطة المدينة لقضاة ومُحامين وأطبّاء وفنّانين ورجال أعمال وأزلام الحزب الآخرين. فندقه كسائر الأماكن الّتي يُمارسون فيها انحرافاتهم وقوّتهم بشكلٍ إجرامي. إنّهم حتّى يقتلون أثناء مُمارساتهم. كان اليوم الّذي صار فيه عصيًّا عن فتح فندقه لهم، فانقلبوا عليه. هذا سبب رصدهم الدائم وتخويفهم لهم. لم يُعاقبوه، بل راقبوه إلى أن كان مجيء اليوم الّذي سجنوه ولم يُعاقبوه. من وضعه في السجن هو من حاول الاعتداء على ابنهما «مرتقب». الخديعة أن يتلاعبوا بهم وخديعة الخديعة أن يرصدوهم كيْلا يُدركوا ما يفعلونه. تحوّلت السّلطة من الحُكم إلى التلاعب والقمع والرقابة وإراقة الدماء من خلال المَتعة. خديعة الخديعة تكمن في إثارتهم وإمتاعهم حدّ قتلهم. ليست الهواجس ما يودّون أن يروها بل ظلالها. نحن نعيش في وقت بالكاد نؤمن فيه بأي شيء. ثمة حقيقة وهي أن

تخدع نفسـك. أن تُقـرّ للحقيقة أنّها كاذبة عـلى أكمل وجه. هذا النظام أكثر شُـمولاً ممّا يعرفونه. إنّه مثل بئر برهوت. لن يعرفوا شـيئًا عنه بغض النّظر عن مدى صُعوبة مُحاولتهم. وإذا حاولوا، سيُهاجمهم الموت.

وكل ما يخرج منه في تلك الأثناء يظلّ هامدًا. «ألم يُحشر زوجكِ في السجن بسبب ما قلته آنفًا»

كان لهـذا الحـادث وقـعٌ مُضطـرب عليهم. في ذلـك الصّباح مضـت «رنـين» إلى متجـر الغذاء. الطعـام لا يكفيهـم زادَ ثلاثة أيّـام. كان التفكـير مصـدرًا لا ينضـب مـن الأحـزان العُظمى. قُعودهـا في هـذا البيـت كفّارة لأخطـاء لم تأتِ عليها. اسـتحال جسـدها حُطامًا. بحثت عن أدنى سـانحة للتلهّي لأنّ شُعورها بالفجيعـة يُلقي بهـا في زوابع مُحلّقة. كأنّها حُفـرة مُضطربة. كان الجو عاصفًا والسّـماء كالحة الظلمة. يتعقّبها كل صباح شخص ما سـيْرًا على الأقدام أ ليتأكّد من أنّها سـتكون عـلى أتمّ ما يُرام؟ زحـف رأسـها في تفكـير عميـق وتسـاءلت عـمّا قالـه لها مُحبّ الترصّـد عـن مُقارنة النظام ببئـر برهوت. أي شـخص يريد أن يعـرف أدنـى أسراره سـيتعرّض للهُجـوم بالموت. مـاء الحنفيّة

الّذي يتخلّله روائح المجاري يغلي وكانت الجدة تقطع البطاطس إلى قطع صغيرة متى جاءها مُحبّ الترصّد من الخلف. غطّس لها الرأس في الماء المغلي وأعاد مشبك شعرها المُتساقط. بدا وحشيًا بشكلٍ لا يُصدّق. دفعته الجدّة تتلوّى. انتفخ وجهها مُشوّهًا كالقروح. اقتنص مُحبّ الترصّد السانحة وأشعل النّار في المطبخ. «أما كنتِ تحبين حرقي أيّتها الحيزبون» أطبق الباب عليها وغادر مُتعجّلًا البيت. انتقلت همجيّة النّار وغطيطها إلى الجدّة. اختلج لهب ملسوع يهزّها ويلطخها. تستعر ألسنة اللهب المُتماوجة وباقات شررها في جلبابها. الحريق يلتهمها. تتحوّل إلى جسد يُشبه الظلام. تضخّمت صرخة تُذيع الموت. سقطت الجدة تتفلطح على الأرض. ترتعش لاإراديًا كالديك المذبوح. ثمّ صارت فاقدة الوجود. ولّت «رنين» عائدة إلى البيت وكان الدخّان يتسرّب كأعمدة تتشابك. فتحت باب المطبخ عنوة فلاقتها النيران المُضطرمة ضارية بأنوارها البرّاقة والمبهرة. وقد بنّجت الفجيعة أقدامها. استكانت عاجزة قُبالة مشهد احتراق الجدّة غير أنّها سُرعان ما وجدت نفسها مدفوعة بأيدٍ خفيّة إلى زوبعة اللهب المُقوّسة. تتشعث في اتّجاهات مُتفرّعة. ينبعث

زعيق مُفجع لا طريق له. عَلت ابتسامة «ريماس» تتجسّم إلى أفعى جَائِشة تطرح السمّ في وجه من يقف في واجهتها. تصفعها بأعين حاقدة وناقمة. شخرت كالخنزير المُدلّل. تكتفي بتدبيج الكلمات الساقطة. ما كان يجعلها تتربّع في عوالم الرصد والخديعة دون هذا المُكر. لم يلبث اللهب المُهتاج بألوانه المُتراقصة ودهاليزه أن شرّع فمه وبُؤبؤه أثناء مُعانقتها وبدأ يأكل كل بوصة من جسدها حتّى أصبح يتأجّج ويعلو كوحش أسطوري يزرد الحياة وما يتّصل بها. تستحيل مَتعة من متع كهوف جلّادي المدينة. سحابة العقاب الحزينة تعبقُ. شيئًا خسيسًا مُفجعًا وساديًّا يغرس صواعقه حدّ عتمة الموت.

السّاعة: ١٥:٢٧

كُتِبت الرواية في الفترة من ٢٤/ ١١/ ٢٠٢١ إلى ٢٨/ ٠١/ ٢٠٢٢

(عدد أيّام الكتابة: ٣١ يومًا)



ياسين الغماري

خديعة الخديعة

ذات صباح في تشرين الأول/أكتوبر، كانت الشمس مُشرقة بشكل صارخ. المباني تصلي بالسياط المحموم. انطلقت الرّيح الباردة بعتوّها. بدأ الخريف في التقاط حقائبه مُنذ أيّام قليلة. تلمّست "رنين" المذياع المُضاء. لم يكن مُعبّرًا على نحو جيّد. ينبعث منه أنّ زوجة رئيس الحكومة تُقاضي المُمثّلة على أساس هذا التصريح اللاأخلاقي. أطفأته. شاهدت ركض أولاد المدرسة من بعيد. تناهت إلى مسامعها الوشوشات والهمسات. يلعبون الغُمّيضة. يبحثون عن مهرب، مكان آمن للاختباء. يهتزّون بشيء من الحُبور. حالما يكبرون سيدركون أنّ هناك هزّات، لا يعود المرء بعدها على ما كان. كانت على دراية كاملة بهذه الحقيقة والأمر يعود إلى البيئة الّتي نشئت فيها إذذاك. نزل الطفل في مُؤخرة السيّارة. لم تكن طُموحاته هي نفس طُموحات عصره. لقّنته "رنين" حبّ الكتابة والقراءة، لذلك يُريد أن يُصبح كاتبًا مُتخيّلًا. يُقارع الأشرار بالمُخيّلة. أمّا بقيّة الصّغار فلديهم إمكانيّة "الغُمّيضة" والسعي للتّواري الأبدي من الوحش الّذي يُلاحقهم. في حين كان الصغار يفرّون من الوحوش المُترصّدة بهم، على حدّ سواء القُبيبثة أو كما يُسمّيها البعض بالغولة المُخيفة، لم تستنكف الجدّة عن الهمس والدردشة. تعرفُ "رنين" ضمنًا أنّ هذه القصص كانت أساطير بحتة. يُمكن القول أنّها نادرة الوجود. لكنّ الريف، وعلى وجه الخُصوص من أهل المدينة أنفسهم، آمنوا بها. التّواطؤ هو الخديعة. لا أحد رأى تلك المخلوقات رأي العين بأيّة حال. ما كانوا يملكون دليلًا قاطعًا. هذا بالزيادة أنّ أخبار إختفاء الأطفال كثيرة النّشر. ربّما أي إمكانيّة أخرى كانت صحيحة. راودها شعور أن المنزل قد اقتحمَ في غيابها بغير حساب.









Република България-Пловдив

جمهورية بلغاريا -بلوفديف

